القضية المصرية

من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٣

العاصفة *

إن قلبي يرتعد خوفاً وفرقاً ، أسمع قعقعة في جوف السماء فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ؟ أرى الوجوه شاحبة ، والعيون حائرة ، والجباه عابسة ، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم ، واقشعرت له جلودهم ؟

ما هذا المنظر المرعب المخيف ؟ ما هذه الضوضاء المرتفعة بالمجادلات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يتصارعون ويتجاذبون ويبغي بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة فيها بعد اليوم ، هذا هو شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها ، وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة

لقد ظننت في ساعة من ساعات حياتي أني قد أمنت على مصر أبد الدهر ، وكان قلبي يستطير فرحاً وسروراً كلما سمعت تلك (الجوقة) الموسيقية الجميلة تتغنى في أرجائها بنغمة واحدة وتوقيع واحد ، وكنت أصغي إليها بسرور واغتباط إصغاء العاشق المفارق الى تغريد الحمائم المترنمة فوق أفنانها ، ثم مالبثت أن شعرت أن النغمة قد اختلفت ، والتوقيع قد اضطرب ، فذعرت وارتعت ، ورفعت رأسي فاذا أنا في « بيزنطية » وإذا الناس جميعاً في كنيسة « أياصوفيا » يتناقشون ويتجادلون جدالا شديداً في مسألة الطبيعة

---

* كتبت على أثر انشقاق المنشقين عن الوفد المصري وإزماعهم محاربة سعد باشا رئيس الوفد تنفيذاً للارادة الانكليزية التي كانت متألمة أشد الالم من صلابة الرعيم وعناده في التمسك بحقوق الوطن

والطبيعتين ، وأبواب المدينة تقعقع تحت ضربات معاول العدو فلا يسمعون لها صوتا

كنا جميعاً ، وكان الشمل منتظما ، وكان كل مايعزينا عن بؤسنا وشقائنا منظر تلك الوحدة الجميلة التي كنا نُشرفُ على روضتها الزاهرة الغناء من نوافذ سجننا فتهون علينا همومنا وآلامنا ، ولم يكن منظرٌ في العالم أجمل ولا أبدع من منظر تلك الدموع الرقراقة التي كانت تتلألأ في عيوننا جميعاً ، لأنها كانت في الحقيقة دموع السرور والاغتباط باتحادنا واتفاقنا ، ووحدة كلمتنا ، وقوة جامعتنا

لا تزال العاصفة تدوي وتعصف ، ولا يزال البناء يضطرب ويهتز ، فليت شعري هل يتماسك ويعود الى سكونه واستقراره ؟ أم قدر له السقوط كما قدر لأمثاله من الأبنية في عهود التاريخ الغابرة ؟

ها هو سعد باشا يمسك البناء بيـده أن يتداعى ويتهدم ، ولـكنه قد تعب جداً ، ونال منه الجهد والنصب ، لأن الحمل ثقيل ولأن الهادمين من خصومه المصريين معتزون بالقوة الاجنبية وهي فوق طاقته واحتماله ، فهل تستطيع الأمة أن تمد يدها إليه وتعينه على عمله الشاق ؟

هنالك قوتان هائلتان جداً ، قوة العدو الخارج مستترة ، وقوة العدو الداخل ظاهرة ، وهما تعملان معاً بنظام واحد ، وفـكر واحد ، هو أن تُسلمنا أخراهما لأولاهما ، فلنزحف اليهما بقوة أعظم من قوتهما شأناً ، وأجل خطراً ، وهي قوة العقيدة الراسخة ، والايمان الثابت ، والثقة بالنفس ، والأمل الواسع ، والثبات على المبـدأ ، نظفرْ بهما معاً ، ونقض عليهما جميعا ، فلا يبقى لهما عين ولا أثر

إن الساسة الانجليز يريدون أن يمزقوا شمل وحدتنا الوطنية التى بذلنا فى سبيلها الشىء الكثير من ذات أنفسنا وذات ايدينا ليستثمروا شقاءنا وآلامنا فهل نسمح لهم بذلك ؟

لا ، فقد أصبحت الأمة غير الأمة ، والعقول غير العقول ، والأفهام غير الأفهام ، وليست هذه النهضة التى نهضناها اليوم ترديداً لأصوات القائلين ، أو تقليداً لحركات الناهضين ، أو فصلا تمثيلياً ، أو لعبة بهلوانية ، وإنما هى عقيدة راسخة فى النفس رسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين ، فليطلبوا لهم صفقة غير هذه الصفقة ، فى سوق غير هذه السوق ، فما نحن بسلع تباع وتُشرى ، ولا بمأدُبة عامة يهوِى إليها الغادون والرائحون

إننا لم نجاهد يوم جاهدنا من أجلهم ، بل من أجل وطننا ، ولم نغنم فى معاركنا التى أدرناها هـذه الوحدة الشريفة لنضعها يوم نظفر بها فى أيديهم ، يمزقون شملها ، ويشوهون صورتها ، ويلعبون بها لعب الصوالج بالأكر

محال أن نسمح لهم بها طائعين مختارين ، فهى حياتنا وروحنا ، وأثمن ما تملك أيدينا ، وخير ما استفدنا من جهادنا ، بل كل ما استفدناه منه ، وسنذود عنها ذود الأم الرؤوم عن واحدها ، والعذراء العفيفة عن عرضها ، وسنبذل فى سبيل استبقائها فى أيدينا فوق ما بذلنا فى سبيل الحصول عليها

ليس من السهل علينا ولا مما تحتمله أطواقنا أن يتحدث الناس عنا — وقد بدأوا يتحدثون — أن تلك النهضة التى نهضناها إنما كانت رواية تمثيلية خلبنا بها عقول المتفرجين ساعة من الزمان ، حتى إذا نزل الستار عليها إذا الوجوهُ الوجوه ، والصور الصور ، وإذا الداء القديم ، والمرض العضال

إن الشرق لم يشق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون ، فقديما عاش الضعفاء والجهلاء أحراراً مستقلين بفضل اتحادهم وقوة جامعتهم ، بل لأنه يوجد فى كل شعب من شعوبه أمثال هؤلاء الأقوام الذين ابتلينا بهم فى مصر خبثاء الاغراض والمقاصد ، موتى العواطف والمشاعر ، لا يتألمون إلا لأنفسهم ، ولا يبكون إلا على نقص فى أموالهم وثمراتهم

والشعب المصرى أول شعب شرقى نهض نهضة سياسية فى هذا العصر ، ثم مشت الشعوب الشرقية بعد ذلك على أثره ، فيجب أن يكون أول شعب يعرف كيف يمحق الدسيسة الكامنة بين أحشائه ، لتتعلم منه الشعوب الاخرى كيف تمحق الدسائس الكامنة بين أحشائها فيعود بالفخرين ، ويلبس التاجين

إنا لا نريد أن نحارب المنشقين والخارجين ، فالقوة التى لا قبل لنا بها من ورائهم تحميهم ، ولا أن نجادلهم ، فان لهم تحت جلدة وجوههم ذخيرة من السماجة والصفاقة كافية لانكار أن الأرض أرض ، والسماء سماء ، وأن هنالك فرقاً بين لون الليل ولون النهار ، بل نريد أن نقىَ أنفسنا شر دسائسهم ومكائدهم ، ولا سبيل لنا الى ذلك إلا إذا أعرضنا عنهم ، وصنا أنظارنا عن رؤية وجوههم ، وأسماعنا عن سماع أصواتهم ، كما يتعوذ المتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان فعلنا فقد انتصرنا انتصاراً عظيماً لم نوفق الى مثله فى جميع أدوار تاريخنا من عهد « سيزستريس » حتى اليوم ، وإلا فما خلق الله فى العالم خلقًا أهون على الله وعلى الناس منا

الى خصوم سعد باشا *

١

سعد باشا خصم السياسة الانجليزية فى مصر ، وعدوها الألد ، ما فى ذلك شك ولا ريب ، فجميع خصومه السياسيين من المصريين أصدقاء لتلك السياسة ، وأعوان لها على أمتهم

هـذا هو الذى أستطيع أن أفهمه ويفهمه الناس جميعاً ، ولا فرق عندى بين أن توضع فى عنقى جامعة أُقاد بها الى دار المارستان لأقضى فيها بقية أيام حياتى ، وبين أن أفهم غير ذلك

فاشتموا ياخصوم سعد سعداً ما شئتم ، وافتنوا فى النيل من كرامته ما أردتم ، فلامعنى لذلك عندنا إلا أنكم آلة صماء فى يد السياسة الانكليزية ، تتولون بالنيابة عنها زحزحة العقبة الكبرى التى تعترض طريقها ، وتعرقل مساعيها ، وتقف سداً حائلا دون تنفيذ تلك الفكرة الجهنمية الهائلة : فكرة تسجيل الحماية الانكليزية على مصر ، واحلفوا بالله جهد أيمانكم أنكم وطنيون مخلصون ، ماخلق الله بين أرضه وسمائه خلقاً أطهر قلباً ، ولا أنقى سريرة ، ولا أنبل مقصداً منكم ، وأنكم لاتريدون بما تفعلون إلا خير الوطن وأهله ، وهناء الامة وسعادتها ، فليس يغنى ذلك عنكم عندنا شيئا ، لأن

* كتبت هذه السلسلة فى غضون المعركة الهائلة التى دارت بين الزعيم سعد باشا تعضده الامة المصرية وبين عدلى باشا رئيس الحكومة ورئيس المنشقين تعضده القوة الانكليزية وقد ذاق فيها الشعب أشد أنواع العذاب وأفظع صنوف الاستبداد والاضطهاد

الوطنى لايحارب الوطنى ، ولا يبتغى له الغوائل ، ولا ينصب الحبائل لهدمه ونسفه

دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفم بسهولة ، كما يتنفس المتنفس ، ويتنهد المتنهد ، وقدنطق بها جميع الناس فى مصر حتى «سكينة» مجرمة الاسكندرية ، فقد زعمت أنها إنما كانت تخدم الوطن بقتل النساء العاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائرُ الشريفات فلايسقطن فى مثل ماسقطن فيه ، فهى دعوى محتاجة دائما الى برهان ، وبرهانها الوحيد الذى نستطيع أن نتعقله بلا تكلف ولا تَعمُّل ، ولا فلسفة ولاحذلقة ، هو مجافاة السياسة الانجليزية ، والانحراف عنها ، والتجهُّم لها ، وسلوك كل طريق غير طريقها ، وما دمتم متفقين معها فى اعتبار سعد باشا خصما سياسيا خطرا يجب هدمه وإسقاطه ، فأنتم أعوانها وأنصارها ، ومحال أن تكونوا أعواننا وأنصارنا

السياسة الانجليزية تخنق الحرية السياسية فى مصر ، وتضرب على أيدى الكاتبين ، وألسنة الناطقين ، وعقول المفكرين ، وتأبى الا أن تسوق الناس جميعا فى طريق السياسة التى ترضاها لنفسها ، وسعد باشا يحتج كل يوم على ذلك ، ويصرخ الصرخات الهائلات التى ترتجف لها جوانب الارض ، وتهتز لها أركان السماء ، وأنتم سكوت صامتون ، لاتحتجون ولا تغضبون ، فهو الوطنى المخلص من دونكم

بيننا وبينكم أمر واحد ، إن أنتم فعلتموه نلتم ماشئتم من حبنا ورضانا ، وإكرامنا وإجلالنا ، ونزلتم من نفوسنا المنزلة التى ينزلها الوطنيون المخلصون ، وهو أن تعقدوا اجتماعاً عاماً تكتبون فيه احتجاجاً شديد اللهجة الى الحكومة الانجليزية على بقاء الأحكام العرفية فى مصر حتى اليوم ، وعلى القوانين

الاستثنائية ، وقانون المطبوعات ، وتقييد حرية الخطابة والكتابة ، ومنع المظاهرات السلمية ، والاجتماعات السياسية ، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية ، ثم تختمون احتجاجكم بهذه الكلمة « إنا لا نقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين ، أحدهما سجين فى سجن مظلم ضيق ، لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة ، والآخر سجان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر ويملى عليه ما يريد ويشتهى »

هذا هو البرهان الوحيد الذى تستطيعون أن تقنعونا من طريقه بوطنيتكم واخلاصكم لأمتكم ووطنكم ، وأنكم قوم أحرار اباة متشبعون بروح العدل والشرف

فان لم تفعلوا فائذنوا لنا — ولنا العذر الواسع فى ذلك — أن نعتبركم أعداءنا وأعداء حريتنا واستقلالنا ، وأن نتمسك بالاخلاص للرجل الذى يذود عنا، ويجاهد فى سبيلنا ، ويحارب ظالمينا

أتدرون متى نتخلى عن سعد باشا ونخذله ونرتاب فى صدقه وإخلاصه؟ يوم ترضى عنه السياسة الانجليزية ، وتذود عنه الصحف الانكليزية ، وتثنى عليه الدوائر الانكليزية . وتدافع عنه القوة الانكليزية ، وتستحيل نفسه الى نفس انكليزية يحس باحساسها ويشعر بشعورها ، ويتحرك بحركتها ، ويسكن بسكونها ، ويوم تضمه الحكومة الانجليزية الى صدرها ، وتحنو عليه حنو الوالدة المشفقة على طفلها الصغير ، معتقدة أن حياتها فى حياته ، وموتها فى موته ، ومادام سعد باشا باقيا فى صفوفنا لم يفارقنا ولم يتخل عنا ، فمن الجبن والسفاهة وسقوط النفس أن نفارقه ونتخلى عنه ، فان عجز عن أن ينفعنا بشيء فى قضيتنا فلا أقل من أن يشفى غليلنا

بتنغيص ظالمينا ، ولا شيء ألذ للنفوس ولا أشهى اليها من تنغيص الظالمين

ماذا تنقمون من سعد باشا أيها القوم ؟ وأى جناية جناها عليكم فى أنفسكم أو فى أمتكم فتحملوا له بين جوانحكم هذه الموْجدة وهذه البغضاء ؟

ليس سعد باشا هو الذى اغتصب بلادكم ، واستأسر أوطانكم ، وأذل أعناقكم ، وأرغم أنوفكم ، وخنق الحرية السياسية فى مجامعكم العامة ، ومجالسكم الخاصة ، فما يستطيع أن ينطق ناطق ، ولا أن يكتب كاتب ، إلا إيماء وتعريضاً

ليس سعد باشا هو الذى لعب بعقول فريق من أعضاء الوفد وأغرام بالانفصال عن الجامعة الوطنية والخروج عليها ليتوصل بذلك إلى تمزيق شمل الامة وتفريق وحدتها ، وليس هو الذى استثمر بدسائسه ومكائده طمع الطامعين ، وجبن الجبناء ، وغباوة الأغبياء ، ليستعين بهم على خراب الوطن ودماره

ليس سعد باشا خصمكم ، بل خصومكم أولئك الذين يغرونكم به ، ويسلطونكم عليه ، لأنهم يعلمون أن الأمة لا تفلح بغير زعيم ، وأن لا زعيم فيها يغنى غَناءه ، ويسد مكانه ، فان ظفروا به فقد ظفروا بالأمة جميعها ، وحلوا العقدة التى عجزوا عن حلها أربعين عاماً ، فحولوا سهامكم إلى خصومكم ، ووجهوا ضرباتكم إلى المرقب الذى تتساقط منه السهام عليكم

ارحموا أمتكم ولا تثيروا حفيظتها بأهانة زعيمها ونصيرها الباقى لها بعد تخلى جميع أنصارها وأعوانها عنها ، ولا تنتهزوا فرصة ضعفها وعجزها فتدفعوها إلى إحدى السوءتين ، إما الغضب الذى ليس من مصلحتها ،

وإما الذل الذى هو فوق طاقتها ، واذكروا كيف يكون شأنكم غداً أمام أنفسكم وأمام ضمائركم إن تمت لأعدائكم الغاية التى يرومونها من مصر على يدكم ، لا قدر الله ولا سمح ، بل كيف يكون بكاؤكم وعويلكم على وطنكم وبلادكم ، حينما تستيقظون من رقدتكم ، وتستفيقون من سكرتكم ، فتعلمون أن العدو قد اقتحم البلد ، وأنكم أنتم الذين فتحتم له أبوابه بأيديكم

الى خصوم سعد باشا

٢

والله ما ندرى ما هى دالّتكم علينا ، وصنيعتكم عندنا ، ونعمتكم التى قلدتم بها أعناقنا ، فتطلبوا إلينا كل يوم فى خطبكم وبياناتكم ورسائلكم وكل ما تهتف به ألسنتكم وأقلامكم أن ننفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذله وننصركم ، ونفارق طاعته الى طاعتكم

لسعد باشا على الأمة ثلاث أياد لا تستطيع أن تنساها مدى الدهر ، انه أسس الوحدة المصرية التى عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية ، وأنه نقل الفكرة الوطنية من دور الأمانى والأحلام إلى دور الجد والعمل ، وأنه نشر الدعوة الوطنية فى أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى « المسألة المصرية » إن لم تتحقق فيها الآمال اليوم فغداً ، فماذا قدمتم أنتم إلينا من الخدم ، وقلدتم به أعناقنا من المنن ؟

هبونا كما تزعموننا قوماً سذّجاً بسطاء ، طائشى العقول والاحلام ،

لا نستطيع أن نعيش بغير معبود نعبده ، ونخنع له ، أليس من الطبيعى والمعقول أن نفضل عبادة الشمس التى نرى نورها، ونشعر بحرارتها ، ونتمتع بضيائها على عبادة الحشرات التى لا نكاد نشعر بوجودها ، ولا نرى لها فائدة فى شئون حياتنا ؟

من أنتم أيها القوم ؟ وأى شأن لكم عندنا ؟ وما هى الصلة النفسية التى تجمع بيننا وبينكم ؟ وأين مواقفكم التى وقفتموها فى خدمة قضيتنا ؟ وصحائفكم التى شغلتموها من تاريخ حياتنا ؟ وما الذى يغرنا منكم ، ويبهرنا من شؤونكم ، لنعبدكم ونستسلم إليكم ، ونضع فى أيديكم قيادنا ، وقياد حاضرنا ومستقبلنا ؟

إننا نعرفكم جميعا باشخاصكم وأعيانكم، ونعرف جميع ميولكم وأهوائكم، والجهة التى تتجهون إليها دائما فى شؤون حياتكم ، والسياسة التى تظاهرونها وتمالئونها منذ برزتم الى الوجود حتى اليوم ، ونعرف أنكم ذلك الفريق الذى يعثر به المستعمر دائما فى كل أمة يريد القضاء عليها فيستعين به على أغراضه ومآربه لا أكثر من ذلك ولا أقل ، فكيف تطمعون فى أن نتخذكم زعماء لنا فى سياستنا ، بل كيف تطمعون فى أن نعدكم مصريين تشتركون معنا فى شعورنا واحساسنا

سعد باشا يبنى الوحدة الوطنية ، وأنتم تهدمونها ، سعد باشا يحارب خصومنا ويناوئهم ، وأنتم توالونهم وتظاهرونهم . سعد باشا يبكى دماً يوم يستشهد شهيد منا فى سبيل وطنه، وأنتم تشمتون به وتفرحون، وتقولون هذا جزاء المخاطرة والمجازفة ، سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الاحكام العرفية، والقوانين الاستثنائية، وأنتم ترضون عنها، بل تؤيدونها، بل تشتركون

فى وضع موادها ، سعد باشا يريد أن تتطهر الارادة المصرية من رذائل الكذب والنفاق، والظلم والارهاق ، وأنتم تغرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها ،وتمالئونها عليها،وتغضبون وتصخبون كلما شعرتم أن يداً من الايدى تحاول زحزحة الستار عنها ، سعد باشا يصيح فى جميع مواقفه ومشاهده قائلا يجب أن يكون الشعب حراً مطلقاً يختار لنفسه السياسة التى يريدها ، وأنتم تصيحون قائلين يجب أن يساق الشعب الى السياسة التى تراد منه ،لأنه شعب جاهل منحط لايفهم مصلحته ، ولا يستطيع تقديرها ، سعد باشا يربى الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ويبث فيها روح الهمة والعزيمة والانفة والصدق والصراحة والشرف والاباء ، وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها ، وتطلبون من القاضى أن يحكم بغير ما يعتقد ، ومن الشاهد أن يشهد بغير ما يعلم ، ومن الفقيه أن يفتى بما يخالف أحكام دينه وقواعده ، ومن الموظف أن يعتمد فى رقيه وتقدمه على المداهنة والمداجاة ، لا على الكفاية والعمل ، ومن التلميذ أن يطرق الى نجاحه فى الامتحان باب التأييد والتوقيع ، لا باب الجد والاجتهاد ، ومن الفلاح أن يبيع ذمته وضميره برتبة أو لقب أو قضاء مصلحة مالية ، ومن الكاتب أن يحول قلمه الذى وضعته الامة فى يده ليدافع به عنها ، ويذود عن مصلحتها ، الى سهم رائش مسموم يصيب به صميم قلبها ، وتطلبون من الأمة كلها أن تتجرد من شخصيتها وهُويّتها ، وتتحول الى قطيع من الاغنام يسير به كل راع فى الطريق التى يريدها

سعد باشا يقول فيصدق ، وما عرفنا له أكذوبة قط مذ عرفناه واتصلنا به حتى اليوم ، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأكذوبة جديدة لا ينتهى العجب منها حتى تتبعها أختها ، حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة

من قبلكم ، وحتى قال عنكم بعض أصحاب الرأى من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة فى بضعة شهور فوق ما أفسد الاحتلال الانكليزى منها فى أربعين عاماً

فهل من أجل هذا ننفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذله وننصركم ، وننزع عن رأسه تاج الزعامة لنضعه فوق رؤوسكم

إنكم إذن تريدون أن تقرروا أن أرض مصر قد استحالت الى دار مارستان كبرى يعيش فيها أربعة عشر مليونا من المخبولين ، وأن تُشهدوا العالم كله على أننا أمة بلهاء ممرورة لا تستحق استقلالا كاملا ولا ناقصاً ، بل لا تستحق البقاء فى هذا الوجود

ليس لنا أيها القوم زعيم نعبده ونخنع له غير المبدأ ، وما ولينا سعد باشا زعامتنا الا لأنه ينزل على ارادتنا ، وإرادتُنا القاطعةُ ألا ينزل على ارادتكم ، ولا يأخذ برأيكم ، ولا يسير فى طريق يعلم أنكم تسيرون فيها ، وما دام هذا شأنه فمحال أن نغدر به ، ونخفر ذمته ، ومحال أن نخلى بينكم وبينه ، ونسمح لكم بشفاء غليلكم منه ، ونحن شهود نسمع ونرى

عجباً لكم، فيكم العالم والمستنير والفيلسوف والكهل المجرب والشيخ المحنك، فكيف فاتكم جميعاً أن تفهموا أن للطبيعة سنة لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، وأن تحويل أمة مستنيرة ذكية عددها أربعة عشر مليونا من الحياة الى الموت فى بضعة شهور ليس بالأمر السهل الهين ، وأن نقل الزعامة من يد الى يد ليس من الاشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة ، بل لقانون الانتخاب الطبيعى الذى تخضع له الجمعية البشرية مذ أشرقت عليها شمس الحياة حتى اليوم ، وأن توجيه النفس الانسانية من شعور الى ضده لا يأتى

من طريق القوة والقهر ، بل من طريق الحجة والاقناع ، أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل

ما أشد غروركم بأنفسكم أيها القوم ! وما أشد احتقاركم لامتكم ! أمّا غروركم بأنفسكم فلأنكم ظننتم أنكم بالقاء بعض الخطب ، وكتابة بعض الرسائل ، وتدبير بعض المكائد ، وانفاق بعض الاموال ، تستطيعون تحويل الامة المصرية بأجمعها من حب سعد الى بغضه ، ومن الثقة به الى الثقة بغيره ، ومن التمسك والتشدد فى المطالب الوطنية ، الى القناعة والتهاون فيها ، ومن سوء الظن بالسياسة الانكليزية ، الى حسن الظن بها ، ومن السخط على مشروع ملنر ، الى الرضا عنه والاغتباط به ، بدون استناد الى حجة ولا برهان ، كأن ما تفضون به الى الناس آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وما طمع يوماصاحب الآيات المنزلة نفسهُ جل جلاله أن يؤمن الناس بآياته ويذعنوا لها دون أن يدعمها بالحجة والبرهان ، وأما احتقاركم لامتكم فهو اعتقادكم أنها أمة بسيطة ساذجة تأتى بها كلمة ، وتذهب بها كلمة ، وتطير بها فكرة ، وتهبط بها أخرى ، وكأنما أنتم تقولون فى أنفسكم إن الروح الوطنية التى تختلج فى صدرها انما هى روح صناعية غرستها الحوادث والظروف فلم لا تنتزعها الحوادث والظروف كذلك ، وإن الوحدة الوطنية التى تربط بين أجزائها انما هى وحدة كاذبة موهومة فلم لا نبددها ونمزق شملها بوهم من الاوهام الكاذبة ، وإن المنزلة التى نالها سعد باشا فيها إنما نالها بالسفسطة والثرثرة فلم لا نسلط عليها السفسطة والثرثرة فتذهبا بها ، وما دام هذا مقدار عقلها وتصورها فمن السهل علينا أن نَعِدها بأننا نحن الذين سننيلها جميع آمالها ومطالبها لتطمئن الينا ، حتى اذا حان

وقت الوفاء بوعدنا قدمنا لها القيد الحديدى الذى أعددناه لها ، وسميناه خلخالا ذهبياً ، فتصدق وتغتبط وتستطير فرحاً وسروراً

ان كان هذا هو ما تضمرون فى أنفسكم ، وما أحسبكم تضمرون غيره ، فوالله ما احتقر أحدٌ فى العالم هذه الامة احتقاركم ، ولا رأى شعب من الشعوب فيها حتى الشعب الذى يستعبدها ويستذلها هذا الرأى الذى ترونه ، وائذنوا لى أن أقول لكم بعد ذلك إنه ما دامت أفكاركم وآراؤكم فى المجتمع وشئونه ، والامم وطبائعها ، والنفوس ومشاعرها ، لا يمكن أن تتجاوز هذا القدر الذى وصلت اليه ، فليس بينكم رجل واحد يستطيع أن يكون زعيما لامة ، أو زعيما لقرية ، أو زعيما لنفسه

الى خصوم سعد باشا

٣

إن كنتم تريدون أن تجردوا سيف القوة والقهر على رؤوسنا لتستلوا من بين أشداقنا كلمات الحمد لكم ، والثناء عليكم ، والاعتراف بأنكم أصدق الناس وطنية ، وأشدهم إخلاصاً ، وأعدلهم حكما ، وأسدّهم رأياً ، وأبعدهم نظراً ، وأنكم خير من يتولى قيادة القضية المصرية حتى يبلغ بها الغاية المرجوة لها ، فلكم ما شئتم وفوق ما شئتم ، ولا عار علينا فى ذلك ، ففينا الضعيف والعاجز والمضطر وصاحب الحاجة ، ومِنْ قَبْلكم عالجت محكمةُ التفتيش فى اسبانيا من أهليها مثل ما تعالجون منا اليوم ، فنطق الموحد بكلمة التثليث ، ولبس

صاحب العمامة القلنسوة ، وعلق حامل المصحف الصليب ، ومن قبل ذلك أرغم كثير من الملوك الظلمة العلماء والفقهاء على اتباع المذاهب والنحل التى ينتحلونها ، فلم يجدوا بداً من الاذعان لهم ، والنزول على حكمهم ، غير أن لنا عندكم رجاء واحداً لا نضرع إليكم فى شىء سواه ، وهو أن تعترفوا بالطريقة التى حملتمونا بها على الاذعان والتسليم ، وألا تكذبوا علينا فتنشروا فى الناس أنكم أقنعتمونا فاقتنعنا ، وأقمتم لنا الحجة فسلمنا ، وأننا آمنا بكم طائعين مختارين ، فتلك النكبة العظمى ، والرزيئة الكبرى ، التى لا قبل لنا باحتمالها ، وخير لنا أن يتحدث الناس عنا أننا ضعفنا وجبنا بين أيديكم ، فلم نستطع إلا النزول على حكمكم ، والتسليم لكم بما تريدون ، من أن يقولوا عنا إننا انخدعنا بكم ، وصدقنا أكاذيبكم

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقنا أن أصدقاء الحماية بالامس أعداؤها اليوم ، وان الذين أغمدوا فى صدورنا تلك الخناجر المسمومة قد تحولوا اليوم الى أطباء راحمين يحاولون انتزاعها منا ، وان الفارين من صفوف الجيش الوطنى الى صفوف جيش العدو ليحاربونا معه ، ويعينوه علينا ، وطنيون مخلصون ، وان الذين يرمون الأمة بالجهل والغباوة والانقياد إلى زعمائها انقياد القطيع لراعيه بلا تصور ولا ادراك أصدقاؤها ، يعطفون عليها ، ويتمنون لها الخير والسعادة ، وان اتفاق السياستين سياسة الحكومة المصرية وسياسة الحكومة الانكليزية فى الأقوال والأفعال ، والشعور والاحساس ، والميول والرغبات ، والأساليب والتصورات ، من باب توارد الخواطر ، ووقوع الحافر على الحافر ، كما يقول البلاغيون ، وان الديموقراطية الصحيحة هى أن تخضع أكثرية الأمة العظمى لاقليتها الضئيلة المتهالكة ، فان لم تفعل فهى

المنقسمة والمنشقة والمنحرفة عن سواء السبيل ، وأن الزعيم الوطني يجب أن يكون رجلا بسيطا مجرداً من صفات البطولة والنبوغ والشخصية القوية ، والذكاء الخارق ، ليصلح لزعامة الأمة وقيادتها ، وأنه كان من الواجب على سعد باشا كلما برز اليه رجل من الرجال وقال له تنحّ لى عن زعامة الامة وقيادتها لأتولاها بدلا منك ، وأمدّنى فوق ذلك بقوتك ونفوذك وثقتك لأستطيع أن أنزل من نفوس الأمة المنزلة التى تنزلها ، وأتمتع بحبها واحترامها ، وجب عليه أن يفعل ذلك ، فان أبى فهو مستبد جبار لا تقع تبعة انقسام الأمة وتفرقها إلا على رأسه ، ولا يؤخذ بها أحد سواه ، وأن المفاوض الذى لا يمثل الا فئة قليلة من الشعب لا تجرؤ أن ترفع صوتها إلا بين جدران الحصون وتحت ظلال السيوف أعظم قوة وأكبر نفوذاً وأثبت قدماً وأقدر على استنزال مفاوضه على حكمه من الزعيم الذى يمثل أربعة عشر مليوناً يغضبون لغضبه ، ويرضون لرضاه ، وأن الواجب علينا أن نصبر ونتريّث وأن لا نسيء الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر ، ولا بأس أن نسمح لهم بالزحف علينا ، بل باجتياز العقبات التى تعترض طريقهم الينا ، بل باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا ، بل بتوجيه فوهات مدافعهم إلى منازلنا وبيوتنا ، فاذا شرعوا فى إلقاء القنابل وقذفها علمنا انهم يريدون السوء بنا فحاربناهم وقاومناهم ، وأن سعد باشا زعيمَ الامة ورئيسها المفدّى وموضوعَ حبها واحترامها واجلالها واعظامها ظمآن إلى الرآسة يتلهف شوقاً اليها ، ويتهالك وجداً عليها ، أما عدلى باشا طريد الأمة وشريدها فهو رجل زاهد فيها ، قالٍ لها ، ما يحتمل أن يشاك شوكة فى سبيلها

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقنا كم فى شىء من هذا كله، ولو أننا فعلنا لوضعنا فى أيديكم مستنداً قوياً هو أقوى فى دلالته على غباوتنا وجهلنا من جميع المستندات التى جمعتموها حتى اليوم لتكون فى يد السياسة الانكليزية أسلحة تحتج بها علينا وتُلقى بها فى وجوه الذين يزعمون أننا أمة عاقلة رشيدة نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا

إصنعوا بنا ماشئتم ، وافتنُّوا فى ظلمنا وارهاقنا ما أردتم ، وخذوا من عرائض الثقة والتأييد ماتملأون به غرف وزارة الخارجية الانكليزية من أرضها إلى سمائها ، فتلك إرادة الله التى لامحيص عنها ، ولكن اياكم أن تزعموا أننا أعطيناكم من قلوبنا وأفئدتنا ما أعطيناكم من ألسنتنا ، فذلك مانغضب له كل الغضب، وما يملأ صدورنا غيظاً وحنقاً

تقسم لكم بالله أننا مارأينا فى حياتنا ولا فى تاريخنا الحاضر أو الغابر أطمع ولا أشره منكم ! ألم يكفكم مساعدة الدهر لكم ، ونزوله على حكمكم، وأن القوة الانجليزية من ورائكم تمدكم بكل ماتقترحون من سلاح وعدة ، وأن فى استطاعتكم متى شئتم أن تُقهرونا على كل ماتريدون دون أن يحاسبكم عليه محاسب ، أو يراقبكم مراقب، حتى أردتم أن تجمعوا إلى متعة الظلم الوحشى الذى تنعمون به متعةَ السمعة الحسنة، والذكرى الطيبة !

تريدون أن تظلموا فيسمى الناس ظلمكم عدلا ، وأن تَقتلوا فيقبّل المقتول أيديكم اعترافاً بفضلكم ، وأن تختلسوا الثقة من الناس اختلاساً فيشكر لكم هؤلاء الناس تفضلكم بقبول الهدية التى قدموها اليكم ، وأن تضعوا الاغلال الثقيلة فى عنق الامة فترقص فرحاً وسروراً بالعقود اللؤلؤية الجميلة الذى قلدتم بها جيدها ، وأن تملأوا الجو هواء ثقيلا خانقاً

فيستنشقه الناس هواء طلقاً عليلا ، وأن تضعوا على قرص الشمس حجاباً كثيفاً حتى ماينبعث منها شعاع واحد فيبتهج الناظرون بمنظر نورها المتلألئ الساطع

لقد رمتم مراماً لم يرمه أحد قبلكم ، وبلغتم فى الانانية والذاتية الغاية التى لاغاية وراءها ، فآه لو استطعتم أن تفهموا ، وتيسر لكم أن تعلموا ، أن المستحيل لايمكن أن يكون ممكناً ، والممكن لا يمكن أن يكون مستحيلا ، وألا وجود لشىء فى العالم غير الحقيقة المجردة !

آه لو فهمتم أن هذه الامة التى تحتقرونها وتزدرونها ، وتصفونها بالجهل والغباوة ، والغرارة والبساطة ، أمة عظيمة جداً لامثيل لها بين الأمم فى سلامة فطرتها ، وذكاء قلبها ، ودقة شعورها واحساسها ، وسمو خصائصها ومزاياها ، وأن عيبها الوحيد الذى لا عيب فيها سواه أنكم من أبنائها وسلائلها ، وأنكم العقبة الكؤود التى لاتزال تعثر بها كلما حاولت المضى فى طريقها ، والسعى الى الغاية التى هيأتها الاقدار لها ، ولولاكم ولولا أنكم اليد التى يضربها العدو بها ، والقنطرة التى يجتازها اليها ، لما استطاع أن يلمس شعرة من رأسها ، ولا أن يخطو خطوة فى أرضها ، فمتى نفرغ منكم ، ومتى يحكم الله بيننا وبينكم

لاعذر لكم بعد اليوم ، فقد قلتم كل شىء ، وفعلتم كل شىء ، واستنفدتم جميع ماوهبكم الله من القوى العقليـة والمادية سـتة شهور كاملة فى سبيل إسقاط سعد باشا فلم تسقطوه ، وفى حمل الامة على التهاون فى حقها فلم تستطيعوا ، فماذا تنتظرون ؟

أمصممون أنتم على الاستمرار فى خطتكم هذه الى النهاية ؟ أعازمون

على أن تعتبروا الامة كمية مهملة لاحساب لها ، وان تؤلفوا من أ نفسكم جمعية صغيرة تزعمون أنها الامة باجمعها لتصدق على المشروع الانجليزى المنتظر !

ان كان هذا هو ماتريدون ، وما أحسبكم تريدون غيره ، فاعلموا أن للامة شأنها المستقل عن شأنكم وشأن مشروعكم وجمعيتكم ، وان ماتعملونه لاينفعكم ، ولا ينفع أصدقاءكم ، ولا يغنى عنكم ولا عنهم شيئا

اليوم الاسود *

أتدرون ماذا فعلتم بالأمس فى أسيوط وماذا كنتم تريدون أن تفعلوا فى كل بلد ينزله سعد باشا فى رحلته لو وجدتم إلى ذلك سبيلا ؟

إنكم قد وقّعتم بأنفسكم على صك اعترافكم بعجزكم وقصوركم ، وفراغ أيديكم من كل حول وقوة ، وأن هذا منتهى ما فى وسعكم ، وكل ماتملك أعانكم أبعد ستة شهور كاملة تكتبون وتخطبون ، وتدسون وتكيدون ، وتلفقون وتكذبون ، وتصادرون حرية الألسنة والأقلام ، والنظر والتفكير ، وتنثرون ذهب المعز وتجردون سيفه فى كل بقعة وأرض ، لتكوين حزب سياسى عظيم ، يعضد الانجليز فى سياستهم ، ويعين الوزارة على البقاء فى مركزها ، ويقارع حزب سعد باشا مقارعة البطل للبطل ، ينكشف الستار عنكم

* كتبت على أثر تلك المؤامرة الفظيعة التى تمت بالاتفاق بين القوة الانكليزية والحكومة المصرية وأفراد من مجرمى المنشقين فى اسيوط وكان يراد منها هلاك سعد باشا رمى ممه عند وصوله فى رحلته الى هذه المدينة فسلمه الله إلا أن كثيرا من رجاله وأنصاره قتلوا وأغرقوا فى النهر فتم بذلك العار على هؤلاء المجرمين أبد الدهر

فاذا أنتم رؤساء عصابات ، وإذا الحزبُ الذى كونتموه فئةٌ من اللصوص المجرمين حملة الهراوات والنبابيت ، وسكان الأحراش والغابات ، يستطيع كل انسان يأمن جانب الحكومة ويملأ يده منها وإن كان أجبن الجبناء ، وأضعف الضعفاء ، أن يستعين بمثلهم على مثل ما استعنتم بهم عليه ؟

أهـذا هو الحزب السياسى العظيم الذى هيأتموه للفصـل فى القضية المصرية ، والبت فى حاضر مصر ومستقبلها ؟

أهذا هو الحزب المفكر العامل الذى يمشى الى أغراضه السياسية بخطوات هادئة رزينة يعجز عن مثلها الجمهور الأهوج المستطار الذى تَنعوْن عليه كل يوم طيشه وخفته ، وجهله ورعونته ؟

أما إنى لو كنت مكان رئيس الوزارة الذى تزعمون أنكم حماته ودعاته ، وأنصار سياسته ، وعماد وزارته ، لأحسنت تأديبكم على غشكم إياى ، وخديعتكم لى ، حينما زعمتم أنكم رؤساء مطاعون فى عشائركم وقبائلكم ، وأن فى استطاعتكم تكوين حزب سياسى قوى يغمر بقوته وعظمته ونبله وشرفه حزبَ « الرعاع » الذى كونه سـعد باشا ، فاذا أنتم لا شىء ، وإذا الحزب الشريف النبيل الذى كونتموه وسميتموه باسمى ، ونسبتموه لى ، جماعة من قطاع الطرق يترفع عن الاتصال بهم عمدة قرية صغيرة ، فضلا عن رئيس حكومة عظيمة ، ولـكن ما أدرانا ألا يكون زعيمكم مثلكم سخافة وجهلا

ما هكذا تساق الأمم أيهـا البلهاء ، ولا هكذا تقاد الشعوب ، ولا بمثل هذه الاساليب توجه الأفكار الى الخطط السياسية ، وما سمعنا قط

إلا فى عرفكم واصطلاحكم أن النبابيت والعصىّ والخناجر والبنادق وسيلة من وسائل التأثير والاقناع !

حاربوا الرجل بالألسنة والأقلام كما يحاربكم ، وقارعوه بالحجة والبرهان كما يقارعكم ، وحاجّوه بالصراحة والصدق والنبل والشرف كما يحاجّكم ، فان أمكنكم ذلك فذاك ، والا فلا تلجأوا الى الضربة الخائنة الغادرة التى يلجأ اليها المبارز الجبان حينما يعجز عن الثبات أمام خصمه، ويشعر بتفوقه عليه

ما أقساكم! وما أغلظ أكبادكم ! أمن أجل تقديم مستند بسيط للسياسة الانجليزية تعتمد عليه فى اثبات أن الرجل الذى يفاوضونه اليوم يمثل الامة المصرية أو أكثريتها ، وأن الاتفاق الذى يعقدونه معه كيفما كان شأنه اتفاق سائغ مشروع، ومن أجل أن يتيسر لوكيل وزارة الخارجية الانجليزية أن يصرح فى مجلس النواب بوجود فتنة فى مصر بين حزب زغلول باشا وحزب الحكومة، تسفكون دماء أبناء وطنكم، وتقترفون أكبر جريمة تعاقب عليها الشرائع السموية والارضية ، وتُلبسون أنفسكم وأبناءكم وذراريكم العار الذى لا يبلى أبد الدهر !

أليس لكم أولاد تخافون أن ينتقم الله منكم فيهم، ونساء تخشون أن يذرفن الدموع غداً على فلذات أكبادهن بما أذرقتم من دموع أولئك الامهات المساكين اللواتى فجعتموهن فى أولادهن ، وفلذات أكبادهن ؟

أين هم العدليون الذين تتحدثون عنهم ، وتحاولون اقناع السياسة الانجليزية بوجودهم ، وفى أى أرض يقطنون ، وتحت أى سماء يعيشون !

أمن أجل بضع شراذم من الضعفاء المخدوعين ، وآخرين من المتملقين المداهنين ، الذين يوجد مثلهم فى كل أمة وشعب، والذين يطيرون مع القوة

حيث طارت ، ويقمون معها حيث وقعت ، ويعضدون كل حكومة حتى حكومة نيرون ، تزعمون أن الأمة منقسمة على نفسها ، وانها فريقان سعديون وعدليون ؟

لِمَ يتكون حزب سياسي في مصر تحت زعامة عدلى باشا والناس لا يعرفون من أمر الرجل شيئاً سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرآسة الوزارة والمفاوضة فى المسئلة المصرية ، فان ذكر ذاكرٌ منهم شيئاً من ماضيه لا يذكر له سوى أنه كان عضواً مهما فى وزارة الحماية التى ضربت على مصر فى سنة ١٩١٤ وانه أول من ثغر فى جنح الظلام ذلك السد المتين الذى أقامته الامة المصرية فى وجه لجنة ملنر ، وانه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز فى المسئلة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها

لِمَ يتكون حزب سياسى يتشيع لعدلى باشا ويجتد فى مناصرته وتأييده ، ويحمل النبابيت والعصى لمحاربة خصومه ، قبل أن يحرك يداً أو لساناً فى القضية المصرية ، وقبل أن يعلم الناس ماهو صانع فيها غداً ، أيفى بالوعد الذى وعدهم به ، أم تحول الحوائل بينه وبين الوفاء ، وهل الثقة إلا نتيجة طبيعية للعمل والاحسان فيه ؟

لِمَ يتنكر الناس لسعد باشا ويتحولون من مسالمين له إلى محاربين ، هل خان الامانة التى عهدوا بها اليه ؟ أم قصر فى المطالبة بحقهم ؟ والتعبير عن آمالهم وأمانيهم ؟ أم وعدهم بالنزول على رغبتهم فقادهم بالسيف والنار إلى النزول على رغبته ؟ أم حول الحرب التى كانت بينهم وبين أعدائهم الى حرب بينهم وبين أنفسهم ؟ أم وضع الكمائم فى أفواههم فلا ينطقون ؟ والأغلال فى أيديهم فلا يتحركون ؟ أم نغص عليهم حياتهم الاجتماعية

وحول ابتساماتهم الى دموع ، ومسراتهم الى أحزان وآلام ، وآمالهم في الحياة السعيدة الى يأس وكمد

ألم يصدروا قرارهم العام في أمره يوم احتفلوا بقدومه من أوربا احتفالا لم يظفر به ملك متوج ، ولا فاتح كبير ، فأى الاحداث أحدث بعد ذلك فيتنكروا له ، ويضمروا له البغضاء بين جوانحهم ؟

ألم يزل يهتف بالاستقلال التام لبلاده كما كان يفعل من قبل ؟

ألم يزل يقارع الأعداء الغاصبين فى حاضره ، كما كان يقارعهم فى ماضيه ؟

ألم يحاولوا خداعه والعبث بضميره واستنزاله عن صلابته وعناده فى التمسك بحقوق بلاده فلم يغتر ولم ينخدع ، وآثر أن يستهدف لهذه الحرب الهائلة التى يثيرها عليه أعداؤه وأنصار أعدائه من بنى وطنه على أن يفرط فى ذرة واحدة من حقوق الوطن المقدسة ؟

ألم يكن فى استطاعته أن يقبل رآسة الوزارة حينما عرضوها عليه ليتمتع برؤية رجال الادارة الذين يتنافسون اليوم فى الاساءة اليه والنيل من كرامته جاثين على بابه يتلقون أوامره ويطيرون بها فى كل شرق ومغرب فلم يفعل ، وفضل أن يكون فرداً من أفراد أمته واقفاً بجانبها يشاركها فى همومها وآلامها ، ويشرب معها بالكاس التى تشرب منها ، على أن يكون آلة فى يد السياسة الانجليزية لقتلها ، وخنق حريتها

أمن أجل هذا يبغضه الناس ويتنكرون له ولا يقنعون منه بذلك حتى يحملوا فى وجهه الهراوات والعصى ليمنعوه من النزول ببلادهم ؟

هل تنازلوا عن مطالبهم الوطنية ونفضوا أيديهم منها ، فهم ينكرون عليه تمسكه بها وتشدده فيها ؟

هل صفت مياه الود بينهم وبين الانجليز ، وحل الحب والوئام بينهما محل البغضاء والشحناء ، فهم لا يريدون منه أن يكدر عليهم هذا الصفاء ؟

هل كانوا يجاملون فيه السياسة الانكليزية يوم أجلوه وأعظموه وأحلوه ذلك المحل الاعظم من نفوسهم ، فلما تنكرتْ له وجافتْه تنكروا له معها ، وغضبوا لغضبها ؟

هل كانت وطنيتهم نوبة من نوبات الجنون كما كان يشيع عنهم أعداؤهم ، فلما استفاقوا رأوا أن ينتقموا من ذلك الانسان الذى أثار فى نفوسهم تلك العاطفة وأجج نارها فى صدورهم ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، وكل ما فى المسألة أن الوزارة تريد البقاء فى مركزها ، ولا يمكنها البقاء فيه الا اذا نفذت المشروع الانجليزى المنتظر ، ولا سبيل لها الى ذلك الا اذا فضت الامة من حول سعد باشا وحملتها على الالتفاف من حولها وتأييد سياستها ، وقد عجزت عن أن تصل الى ذلك ، فهى تزعمه وتدعيه ، وتمثل هذه الرواية الغريبة التى هى أشبه الاشياء بقصة ذلك الرجل الذى أراد أن يتوسل الى قلب حبيبته بعمل من أعمال البطولة التى يحبها النساء ويمنحن الرجالَ عطفهن من أجلها ، كأن ينجيها من غرق أو ينقذها من هوة ، أو يخلصها من أيدى اللصوص ، وهو أعجز الناس عن ذلك ، فاستأجر جماعة من الغوغاء واتفق معهم على تمثيل رواية خلاصتها أنهم يكمنون لها فى طريق مرورها تحت جنح الظلام حتى اذا مرت بعربتها هجموا عليها وتظاهروا بأنهم يريدون قتلها وسلبها فيمر هو فى تلك الساعة كأنه سائر فى طريقه مصادفة واتفاقا فيهجم عليهم هجمة شديدة تلقى

الرعب فى قلوبهم ، ويطلق عليهم مسدسه المحشو بالرصاص الكاذب ، فيخافون منه ، ويفرون بين يديه ، فرار الجؤذر بين يدى الاسد الرئبال ، وقد مثل الرواية كما وضعها ، وكاد ينجح فى تمثيلها ، لولا أن الفتاة كانت ذكية الفؤاد ، فقرأت على وجهه حين دنا منها آية التصنع والتكلف ، فلم تحفل به ، ولم تقدم له كلمة شكر على بطولته وشجاعته ، وسارت فى طريقها وهى تغرب فى الضحك عليه ، وعلى غرابة تصوراته

هذه هى المسألة لا أكثر من ذلك ولا أقل

ما أجرأكم أيها القوم على الله وعلى الناس أجمعين !

أتكذبون على أربعة عشر مليوناً من النفوس أحياء يرزقون يقولون لكم بألسنتهم وأقلامهم وبجميع مايعرفون من الطرق والوسائل إنهم أنصار سعد باشا وأعداء السياسة الانجليزية فتقولون لهم لا بل أنتم أنصار عدلى باشا وأصدقاء السياسة الانجليزية

أيَسيل النيل وشاطئاه بالهاتفين للرجل ، والمرحبين به ، والخائضين عباب الماء الى سفينته ، مخاطرين بأنفسهم علهم يرون وجهه ، أو يسمعون صوته ، حتى احتجتم فى دفعهم وردهم الى ضرب الرصاص ، وإعمال السيوف ، ثم تقولون بعد ذلك إن البلاد تكره سعد باشا ولا تطيق رؤيته ؟ أترون بأعينكم لمعان السيوف فى أيدى رجال البوليس ، وتسمعون بآذانكم طلقات بنادقهم ، وتشاهدون مطاردتهم الناس ، وهدمهم الزينات ، ووضعهم العقبات ، ثم تقولون بعد ذلك ان الادارة كانت على الحياد ، وان حزب عدلى باشا القوى العظيم فى أسيوط هو الذى أرغمها على منع سعد باشا من النزول الى البر ؟

دعونا من سياسة الدسائس والمكائد ، والمواربة والمداجاة ، والتلفيق

والتأويل ، فهى سياسة عقيمة لا تصلح تربة مصر الطيبة الطاهرة لانباتها واستثمارها ، ودعونا من أساليب المكر والدهاء ، والخبث والرياء ، ومن قتل القتيل والسير وراء نعشه ، وخنق الحرية والبكاء عليها ، والاخلال بالامن العام باسم حفظه وصيانته ، وانتهاك حرمات الناس باسم حمايتها والذود عنها ، وأمثال ذلك من الاساليب العتيقة البالية التى ذهبت وانقضى عصرها بانقضاء عصور الجهالة والسذاجة ، وخذوا بنا فى الحقائق المجردة الواضحة التى لا لبس فيها ولا إبهام

ارفعوا الاحكام العرفية ، والقوانين الاستثنائية ، ودعوا الناس احراراً يفكرون كيف يريدون ، ويقولون مايشاؤون ، مما لا يخرج عن دائرة القانون والنظام ، نصدقْ أنكم قوم احرار تقدسون الحرية وتجلون شأنها

تزحزحوا قليلا عن تلك الحائط الأجنبية التى تسندون اليها ظهوركم ، وتستظلون بظلها ، وتضربون تحت حمايتها ، وليكن النضال بيننا وبينكم وجهاً لوجه ، نصدقْ أنكم أصحاب رأى وعقيدة ، وانكم انما تعملون بما توحيه اليكم آراؤكم وأفكاركم

أشيروا على الوزارة بقطع المفاوضات ، وقولوا لها إن الأمة غير راضية عنها ، ولا عن نتيجتها ، نصدقْ أنكم تنزلون على إرادة الأمة ورغبتها ، وانكم تحترمون اجماعها ، وتنزلون على حكمها

اعترفوا بالحقيقة الواقعة التى تعلمونها جميعاً ، وهى أن حزب الحكومة فى مصر حزب مصنوع موضوع لو نُفِّس عنه الخناق قليلا وتخلى عنه العاملان المهمان ذهب « المعز » وسيفه لحظة واحدة لطار فى أجواز الفضاء ، ولما بقى منه فى مكانه إلا أفراد قلائل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد

واليدين، وان مصر لايوجد فيها إلا حزب واحد تطارده الحكومة وعمالها وأنصارها، نصدقْ أنكم قوم مخلصون، لا تقولون الا ماتعتقدون

هـذه هي السبيل الوحيدة لما تطلبون الينا من الثقة بكم ، والاعتماد عليكم ، واحترام آرائكم وأفكاركم ، واجلال مقاصدكم وغاياتكم ، فان فعلتم فانتم اخواننا وأصدقاؤنا ، وأكرم الناس علينا ، وإلا فقد علمتم رأينا فيكم ، وما نحن بظالمين ولا عادين ، ونسأل الله لكم الهداية والتوفيق

جريمة الانشقاق*

لو أنكم أيها المنشقون بقيتم تحت لواء زعيمكم لم تفارقوه ولم تنتقضوا عليه إن لم يكن ذلك من أجله فمن أجل كرامة الأمة وشرفها ، والابقاء على وحدتها وجامعتها ،ولو أنكم إذْ أبيتم ألا أن تفارقوه فارقتموه بهدوء وسكون لم تثيروا الثائرة عليه ولم تطعنوا خلقه وشرفه وكرامته تلك الطعنات الداميات التى لا يحتمل وقعها فى فؤاده أحقر الناس وأصغرهم فى عين نفسه شأناً ، ولو أنكم يا رجال الوزارة بدلا من أن ترسلوا رشدى باشا اليه يوم استعصى عليكم أمره ليؤذنه بالحرب وليقول له إننا قد قررنا رفض شروطك وإغفال أمرك واطراحك والاستقلال بالعمل من دونك رغم أنفك وأنف الأمة التى تعتز بها أرسلتموه الى دار الوكالة البريطانية ليقول لصاحبها إننا قد

* كتبت على أثر فشل عدلى باشا وشيعته فى المفاوضة الرسمية التى مزقوا فى سبيلها وحدة الامة وأهلكوا ما لا يحصى من رجالها ونسائها وأطفالها قتلا وسجنا وتعذيبا ثم كانت النتيجة أن عرض الانجليز عليهم مشروعا أقل من المشروع الذى عرضوه على سعد باشا فرفضه وكانوا على استعداد لقبوله لولا خوفهم من الامة وغضبها

عجزنا عن اقناع سعد باشا بالتنازل عن شروطه التي اشترطها للمفاوضة معكم ، وليس في استطاعتنا وهو زعيم الأمة وقائدها وقلبها الخفاق أن نخاطر بمجافاته ومناوأته إلا إذا قررنا المخاطرة بوحدة الأمة وجامعتها ، وذلك مالا نرضاه لأنفسنا ، وما يأباه علينا شرفنا وإخلاصنا ، فها هي ذي وزارتكم نخذوها اليكم ، فهي ونحن وكل ما تملك أيدينا فدى لأمتنا ووطننا ، ولو أنكم إذ أبيتم الا البقاء في مراكزكم ، وإلا أن تذهبوا إلى المفاوضة رغم إرادة الأمة وإرادة زعيمها ذهبتم باسمكم وحدكم دون أن تفتحوا باب العرائض والوفود وتُداخلوا الأمة في شأن الثقة والتأييد ، فان عدتم لها بالنجاح شكرت لكم فضلكم ، وأولتكم ودها وثقتها ، والا فلا يعنيها من فشلكم وإخفاقكم شيء

لو أن ذلك كله كان لبقيت الأمة طول حياتها في موقفها الجليل العظيم الذي وقفته في أعوامها الثلاثة الماضية ، موقف الاتحاد والتضامن ، والقوة والبأس ، والعزة والشرف ، ولظلت سائرة في طريق جهادها الوطني تحت قيادة زعيمها حتى تصل إلى الغاية التي رسمتها لنفسها ، أو تموت من دونها

فأنتم يا خصوم سعد باشا وخصوم الأمة جميعها المسئولون عن ذلك الشمل المبدد ، والاديم الممزق ، والجامعة التي شُوه وجهها ، وزال رونقها وبهاؤها ، وعن حوادث الاسكندرية وطنطا وأسيوط وجرجا وجميع المظالم التي نزلت بالوطنيين الأبرياء في الأشهر السبعة الماضية من قتل وسجن ، وإعدام وتشريد ، وتعذيب واضطهاد ، وعن تلك النهاية المحزنة الأليمة التي انتهت بها المفاوضة الأخيرة ، فاعترفوا بذلك ، ولا تكتموه الناس ، عسى أن تجدوا لكم في زوايا بعض القلوب مكاناً للرحمة بكم ، والاشفاق عليكم ، ولا

تحاولوا إلقاء التبعة على غيركم، فتضموا إلى جرائمكم الماضية جريمة العناد والاصرار

من الذى عهد اليكم بالاشتغال بقضية مصر السياسية ؟ وأين هو المؤتمر الوطنى أو الهيئة النيابية أو الجمعيــة الوطنية التى وكلت اليكم ذلك واختارتكم له ؟ ومتى كانت الشؤون السياسية ميداناً للتجارب والاختبارات ينزل فيه كل من أراد أن يجرب حذقه ومهارته ؟

إن الامة لم توكل فى قضيتها غير رجل واحد ، قد اختار بضعة أفراد منكم فيمن اختاره من أصدقائه ومعارفه للاستعانة بهم على عمله، ثم لم يحمد أمرهم حين أحس منهم الغدر به وبالقضية المصرية فعزلهم وعزلتهم الامة معه ، فما هــذا التشبث البارد بعضوية الوفد ، والوكالة عن الامة ، والنطق باسمها ، والمفاوضة عنها ، والامة لاتعرفكم ، ولا تفهمكم ، ولا صلة نفسية بينها وبينكم ، ولم تعتقد فى وقت من أوقاتها أنكم وكلاؤها أو نوابها ، أو أمناؤها على سياستها ،حتى أوردتموها بالحاحكم وفضولكم وسوء سياستكم هذا المورد الوبيل

لاتلوموا سعد باشا على فشلكم واخفاقكم ولوموا أنفسكم ، فقــد أبلى الرجل البــلاء العظيم فى نصحكم وتحذيركم ، وتنبأ لكم بكل ما وقع لكم اليوم كأنما كان يطالع صحيفة من صحائف الغيب فلم تكترثوا له ، ولم تحفلوا بنصحه

قال لكم إن المفاوض الانجليزى لايحفل ولا يعبأ الا بمفاوض يعتقد أنه يمثل أمته ، وينطق بلسانها، نطقاحقيقيا لاتمثيليا ، فاتهمتموه بحب الرآسة والسعى وراء الشخصيات ، ورميتموه بسوء النية والقصد

وقال لكم إن الانجليز لا يريدون بفتح باب المفاوضة معكم الا الاستعانة بكم على تمزيق شمل الامة وتبديد وحدتها ، وهى القوة الوحيدة التى تملكها ولا تملك غيرها ، والاخير يرجى من هؤلاء القوم لكم ، فثرتم فى وجهه ، وسمحتم لانفسكم أن تسيئوا الظن به ، ولا تسيئوه بالانجليز

وقال لكم احذروا أن تخطوا خطوة واحدة فى طريق المفاوضة قبل أن تستوثقوا لانفسكم بمرسوم سلطانى يحدد موضوع المفاوضة ويكون أساسا لها ، فانكرتم ذلك عليه ، وزعمتم أن فى أيديكم من الوعود المؤكدة والاقسام المغلظة ما يغنيكم عن هذا الاحتياط والاستيثاق

وقال لكم ان الانكليز يخافون أكثر مما يستحيون ، وأنهم لا يعرفون فى السياسة مودة ولا اخاء ، وانهم لا يريدون من استبدال مفاوض بمفاوض إلا الهرب من شدة الاول ، والطمع فى لين الثانى ، فسفهتم رأيه ، وزعمتم أنهم قوم ذوو أخلاق كريمة ، وآداب عالية ، وعواطف شريفة ، وأمزجة رقيقة ، وأنهم يمنحون الصديق الذى يحاسنهم ، أضعاف ما يمنحون العدو الذى يخاشنهم

وقال لكم فى نهاية الامر لا ارادة لى ولا لكم فى ما تقضى به الامة ، وما تراه فى شأنى وشأنكم ، فلنتحاكم اليها ، ولننزل جميعا على حكمها ، فاكبرتم ذلك منه ، وسميتموه رجلا ثائرا متمردا لا يخضع لقانون ولا نظام

قال لكم كل شىء ، وحذركم من كل شىء ، فَلِمَ تلومونه اليوم ، وتلقون تبعة اخفاقكم عليه ، ولِمَ يملأ بغضه صدوركم حتى يصرفكم عن الالتفات الى عدوكم الحقيقى الذى لعب بكم ، وعبث بعقولكم ، وكون منكم جيشا جراراً لمحاربة أمتكم ، وتنغيص عيشها ، وتكدير صفائها ، حتى اذا قضى حاجته منكم ، وفرغ من تمزيق شمل الامة وصدع وحدتها على يدكم ، أدار

وجهه عنكم، ونبذكم نبذ النواة بلا رحمة ولا شفقة، وهذا هو المعنى الحقيقى للمفاوضة التى أجراها على أيديكم، وهذا هو كل الغرض المقصود منها

ليسأل عدلى باشا اللورد ملنر عن هذه النتيجة المحزنة التى انتهى اليها أمره، فهو الذى خدعه وغشه، ومناه الامانى الكاذبة، ووقف به على رأس ذلك الطريق الذى ظن أنه ينتهى به الى زعامة الأمة وقيادتها، ثم لم يلبث أن خذله وتخلى عنه، بل استقال من وظيفته حتى لا يتقيد بالوعد الذى وعده إياه

ليسأل المنشقون عدلى باشا عن السقطة الأدبية العظمى التي هوت بهم من سماء العزة والشرف، إلى حضيض المهانة والضعة، فهو الذى زين لهم الانشقاق على زعيمهم، والخلاف عليه، وأغراهم باتخاذ خطة فى السياسة غير خطته، ففعلوا فكان ذلك عاقبة أمرهم، وخاتمة مطافهم

ليسأل الوزاريون جميعا المنشقين والوزراء عن خيبة الامل التى لحقت بهم، والصدمة الكبرى التى اصطدمت بها آمالهم وأمانيهم، فهم الذين خلبوهم واستهووهم، وأطمعوهم فى الجوائز والمنح، والوظائف والرتب، يوم يتم لهم الانتصار على أيديهم، فلاهم أدركوا ما أملوا، ولاهم بقوا فى صفوف أمتهم يعملون معها، ويجاهدون فى سبيلها

ليسأل كل منكم صاحبه عن نكبته التى نزلت به، ولا تسألوا سعد باشا عن شيء، ولا تلوموه فى أمر، بل اشكروا له فضله عليكم، ويده عندكم، فلولاه ولولا جهاده ومعارضته، ووقوفه فى وجهكم ووجه مشروعكم وقفة الأسد المهصور، لتمت على يدكم الجريمة الكبرى، جريمة تسليم البلد الى أعدائه، ولسجل التاريخ لكم فى صحائفه أنكم أصحاب تلك الجريمة ومقترفوها

أفهمتم الآن أن سعد باشا أصدق منكم نظراً ، وأعلى رأياً ، وأنفذ بصيرة فى بواطن الاشياء ، وانه ما كان يعارضكم يوم عارضكم حباً فى الرآسة ، أو سعياً وراء الشخصيات كما كنتم تزعمون ، بل حرصا على مصلحة البلد ، وضناً بخلاصه وإنقاذه

أفهمتم الآن انه لو كان نزل على رأيكم وخضع لاوهامكم وأحلامكم — وهذا هو ذنبه الوحيد الذى تأخذونه به — لدفن معكم فى الهوة التى دفنتم فيها اليوم ، ولم يبق فى الامةمن بعده صوت ينادى بحريتها واستقلالها

أفهمتم الآن انه لايوجد بينكم سياسى واحد يستطيع أن يكتنه بواطن السياسة ويستشف اعماقها ، ويحسن إدارة معركتها إدارة كافلة بفوز الامة وانتصارها ، او بانقاذها من خطر الوقوع فى الاسر على الاقل ، وانه لو تم على يدكم اسقاط سعد باشا كما كنتم تريدون لطال حزنكم وبكاؤكم يوم تطلبون غيره ليقوم مقامه ويملأ فراغه فلا تجدون

ماذا كان يَظن أعضاء بعثتكم الرسمية بأنفسهم يوم ذهبوا للمفاوضةعلى الصورةالتى ذهبوا عليها ، وكيف كانوا يتصورون انالمفاوضالانكليزى يعطيهم الاستقلال تاماً او ناقصاً وقد تقدموا اليه بيد مُصفِرةٍ من كل قوة يستطيع المفاوض ان يعتمد عليها فى مقارعة خصمه واستنزاله على حكمه

لا يستطيعون ان يقولوا له ان الامة قوية مسلحة تستطيع ان تنتصف لنفسها بنفسها ان لم تنصفها ، لانه يعلم كما يعلمون أنها ضعيفة عزلاء لاتحمل من الاسلحة اكثر من عصىّ «الساحل» ونبابيت « الحواتكة » ولا ان يقولوا له انها متحدة يدا واحدة والاتحادُ قوة تقوم مقام القوة المادية ،

لأنهم قدموا اليه قبل ذلك الوثائق والمستندات الدالة على انها منقسمة على نفسها وأنهما فريقان سعديون وعدليون يقتتلون فى كل مكان يلتقون فيه كما كان يفعل البروتستانت والكاثوليك فى ايرلندا والمسلمون والوثنيون فى الهند ، ولا ان يقولوا له انها متشددة فى مطالبها الوطنية لاتقبل فيها مساومة ولا مهادنة ، لأنهم قالوا له قبل ذلك وأقسموا على ما قالوا ان اكثريتها قد انفضت من حول سعد باشا والتفت من حولهم ، أى انها قد تحولت من خطة التشدد والتطرف الى خطة القناعة والاعتدال ، ولا أن يقولوا له إنها راقية متمدينة تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها ، لأنه يعلم حق العلم الاساليب الوحشية التى اتخذوها فى سبيل الحصول على عرائض الثقة التى قدموها اليه وماذا صنعوا بأمتهم فى سبيلها ، فماذا يعنيه من أمرهم بعد ذلك ؟

لارعاكم الله أيها القوم ، ولا رعى يوماً اتصلنا بكم فيه ، فقد افسدتم علينا كل شأن من شؤون حياتنا ، وهدمتم بحمقكم وخُرقكم وسوء رأيكم فى لحظة واحدة ذلك البناء الفخم الجميل الذى قضينا فى بنائه ثلاثة أعوام كاملة ، ولم تقنعوا منا بذلك حتى جئتم اليوم تمنون علينا بأن بعثتكم قد قطعت المفاوضات بشرف وإباء وأن لها الحق فى الافتخار بذلك

مرحى مرحى ! ألم تكن المفاوضات مقطوعة من قبل اليوم على يد سعد باشا فهل كان غرض البعثة من ذهابها أن تقطعها مرة أخرى حتى اذا تم لها ذلك عادت تفخر بنفسها وتفخرون بها وتدعون الناس الى الاحتفال بها عند قدومها !

أتريدون أن نحتفل بها لنجدد بذلك عصر الجاهلية الاولى أيام ضراعة

الشعوب وذلها ، ومهانتها واستخذائها ، وتقبيلها يد ضاربها حين يضربها ، وشربِ نخب انتصاره عليها !

أتريدون أن نحتفل بها ليتحدث الناس عنا أننا قد رضينا بجميع المظالم التى نزلت بنـا ، وأغضينا جفوننا على قذاها ، فيطمع فينا كل طامع ، ويعبث بحقوقنا كل عابث !

أتريدون أن نحتفل بها لتبرز لنا كل يوم هيئة جـديدة تفتح باب المفاوضة فى القضية المصرية ثم تقفله لتتمتع بكلمات الثناء عليهـا ، ومشهد الاحتفال بها ، ونحن فيما بين هذا وذاك هلـكى ضائعون !

أتريدون ان نحتفل بها قبل ان نعلم هل نفضت يدها من المفاوضة إلى الأبد ، أو أنها قطعتها اليوم لتصلها غدا ، وهل صرفت النظر عن عرض مشروع كرزن على الأمة ، أم تريد عرضه من طريق غـير طريقها ، وهل الوزارة عازمة على البقاء فى مركزها ، أم تريد ان تنحلّ لتتألف مرة ثانية بصورة اخرى غـير صورتها ليبقى لنا شقاؤنا وبلاؤنا الذى نحن فيـه أبد الدهر ، وهل برئنا من دائها تمام البرء ، ام لاتزال بقية منه كامنة فى أعماق صدورنا لانعلم ما الله صانع بها !

وبعد فأين هى المفاوضة التى تزعمون انها قامت بها ، أو انها قطعتها او وصلتها ؟

إنهـا لم تفعل شيئاً سوى انهـا تقدمت لاداء الامتحان امام اللورد كرزن فى القدرة على حمـل مشروعه الى الأمة وتنفيذه فيهـا فأخفقت فعادت ادراجها

فهل هذا هو الفخر الذى تزعمونه لها ، وتَنحلُونها اياه ، وتريدون حملنا

بالاساليب الادارية المعهودة على الاحتفال بها من أجله ؟

إن كان تمزيق شمل الامة ، وتبديد وحدتها ، والاستعانة بالقوة الاجنبية على إخضاعها واذلالها، وسفك الدماء البريئة فى الميادين والشوارع ، وزج الوطنيين المخلصين أفواجاً أفواجاً فى أعماق السجون ، وابتياع الذمم والضمائر ، ومحاولة إفساد الاخلاق القومية فى جميع الدوائر والهيئات حتى فى المدارس والمعابد والمحاكم ، والتفريق بين الوالد وولده ، والاخ وأخيه ، والصديق وصديقه ، والزوج وزوجه ، وافساد سياسة الامة عليها ، وإطماع أعدائها فيها ، والهبوط إبالمفاوضات بعد ذلك كله وبعد تضحية جميع هذه الضحايا من مشروع ملنر الى مشروع كرزن ، مجداً وفخراً يستحق أصحابه الاجلال والاعظام ، والاحتفاء والاحتفال ، فرحمة الله على الفضيلة ، وليبك الباكون عليها وعلى مصيرها المحزن الاليم

كونوا أيها القوم كيفما شئتم ، وأضمروا لنا من الشرور ما أردتم ، ورتبوا لنا فى أذهانكم كل يوم مكيدة جديدة ، أو دسيسة مبتكرة ، فمحال أن تنالوا منا منالا ، أو تصلوا من طريقنا الى غاية ، فسنبنى بعون الله وقوته كل ما هدمتم ، ونصلح كل ما أفسدتم ، لا نضعف ولا نفتر ، ولا نهن ولا نيأس ، فما خلقت الامم الا للجهاد ، ولا لذة للحياة الا بالعمل ، حتى يأتى عليكم ذلك اليوم الذى تقتنعون فيه تمام الاقتناع بأن فى الامة رأياً عاماجدياً لا يسمح لرأس معوج يريد أن يرتفع على حسابها ، وحساب ظلمها واساءتها ، بالبروز من مكمنه ، وأن لا قوة فى مصر غير قوة الشعب ، ولا حكم فيها الا حكمه

عبرة الدهر *

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، وأيقنت أن الباطل ظل زائل لاثبات له ، وأن الحق صخرة عاتية لاتزعزعها العواصف ، ولا تعبث بها عاديات الايام

فقد مرت بى فى غضون الاشهر الفائتة ساعات أعترف انى خفت فيها على الحق أن يغتاله الباطل ويصرعه ، عندما أشرفتُ على ذلك الميدان الواسع الفسيح — ميدان المعركة السياسية المصرية — ورأيت ذلك الجيش اللجب العرمرم جيشَ الباطل زاحفاً بخيله ورجله ، وفى مقدمته القوة الانجليزية بمدافعها وطياراتها ، وصواعقها ورجومها ، وفى مؤخرته القوة المصرية ببنادقها وسيوفها ، وسياطها وعصيها ، وفى أحد جناحيه الوزارة يحيط بها أنصارها وصنائعها ، وذوو الحاجة اليها ، وفى الجناح الآخر المنشقون يحيط بهم خدمهم وفلاحوهم وأجراؤهم وأهلوهم ، وفيما بين هذا وذلك الكتاب الكاذبون ، والخطباء الخادعون ، والدعاة الخبثاء ، والجواسيس الدهاة ، والاحكام العرفية ، والمجالس العسكرية ، والقوانين الاستثنائية ، والاكاذيب والأراجيف ، والصور والتهاويل ، وكل ما يمكن أن يسمى قوة يهجم بها هاجم على خصمه ليسلبه فى آن واحد قوة جسمه ، وقوة قلبه ، وقوة يقينه ، وقد ذَهَبَتْ لذلك الجيش فى آفاق السماء جلجلةٌ كجلجلة الرعد القاصف ، وانتشر له فى جميع الأنحاء بريق يخطف الأبصار ، ويعشى الانظار ، فالتفتُّ

* كتبت لمناسبة فشل المنشقين فى المفاوضة الرسمية وتضعضع امرهم بعد ذلك وانفضاض أنصارهم من حولهم بعد فشلهم

إلى الجانب الآخر من الميدان ، فرأيت سعد باشا واقفاً فى مكانه أعزل لاسلاح معه ، ولا يحيط به إلا سواد الأمة الاعزل مثله ، فانبعثت من صدرى صرخة الرعب والخوف ، وخيل إلى أن الرجل هالك هو وأمته ، مافى ذلك ريب ولا شك ، ثم هجم ذلك الجيش العظيم هجمته الكبرى التى لم يسمع بمثلها فى تاريخ هجوم الأقوياء على الضعفاء ، والتى استمرت سبعة شهور كاملة لاتهدأ ولا تفتر ، فثبت الزعيم فى مكانه ثباتاً غريباً مدهشاً ، وكأنما استحال الى كرة فولاذية ملساء تتساقط عليها السهام ثم تنزلق عنها ، وربما أصابت جسمه بعض الجرحات ، ولكن لم يستطع سهم واحد أن ينفذ إلى قلبه ، وثبتت الأمة بثباته فلم تهن ولم تضعف ، ولم تعبأ ولم تحتفل ، ولم تأخذ بلبها الصور والتهاويل ، ولم تنل من نفسها الأكاذيب والأراجيف ، ولم تعبث بعقيدتها الالسنة الخالبة ، والاقلام الخادعة ، وهاهى ذى الأيام قد أخذت تدور دورتها ، فانقلب الجيش المهاجم مدافعاً ، والجيش المدافع مهاجماً ، ولله فى خلقه شؤون ، أنظر اليهم هاهم ألاء يتقهقرون ، وإن كانوا لايزالون يضربون ، هاهى ذى ألسنة خطبائهم تتلجلج فى أفواههم ، وأقلام كتابهم تضطرب فى أيديهم ، هاهى ذى وجوههم قد علتها غبرة الموت ، وقلوبهم تتنزى بين جوانحهم تنزى الكرة فى أيدى ضاربيها ، هاهى ذى أصواتهم قد مازجها أنين محزن كأنين المحتضر ، وصرخاتهم قد استحالت الى عواء كعواء الذئاب ، هاهم أولاء يخلطون ويهذون ، ويسبون ويشتمون ، ويصخبون ويحتدمون ، أى إنهم يلجأون الى السلاح الاخير الذى يلجأ اليه المقهور فى ساعته الأخيرة ، هاهم أولاء يخافون من كل شيء حتى من خطبة يخطبها أزهرى فى مسجد ، أو كلمة يلقيها طالب فى متنزه ، أو صرخة

يصرخها صارخ فى محفل ، ومن همس الهامس فى أذن أخيه ، ونظرة الصاحب فى وجه صاحبه ، ومن قدوم بضعة أفراد من أعضاء مجلس النواب الانجليزى الأحرار الى مصر لا يملكون إلا قليلا من الحول والقوة ، ومن سفر الزعيم من بلد إلى بلد لايحمل إلا قلبه ، ولا يملك إلا لسانه

ما بالهم ، وما الذى دهاهم ! ومم يخافون ، والقوة فى أيديهم ، والأيام موانية لهم ! والدهر نازل على حكمهم ، نعم ولكنهم مبطلون ، والباطل لا قوة له وإن اجتمعت فى يده جميع القوى

تلك عبرة الدهر التى يجب أن يعتبر بها أولادنا وأحفادنا من بعدنا

فلتقرأوا ياأبناء الأجيال المقبلة هذه الصفحة المجيدة من تاريخ حياتنا لتعلموا أن رجلا واحداً من ابناء امتكم تمسك بالحق فاستطاع أن يثبت أمام أقوى قوة فى العالم ، وأن ثباته قد أنقذ مصر من أعظم نكبة كان يدّخرها لها الدهر فى طيات تصاريفه ، ولتُحنوا رءوسكم أمام هذه الذكرى المجيدة إجلالا لها ، واعظاما لشأنها ، ولتجعلوها مثلكم الاعلى فى مستقبل حياتكم ، وعبرتكم البليغة التى تغنيكم عن جميع العظات والعبر

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، فما فى العالم قوة تستطيع أن تهاجمها أعظم من هذه القوة ، وليس فى الامكان أن تحل بساحتها نكبة أهول من هذه النكبة ، وما أحسب إلا أن الله تعالى قد أراد أن يبلوها ويختبرها فامتحنها بهذه المحنة الفادحة ليرى كيف يكون صبرها واحتمالها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فيمنحها من حسن الجزاء ، على قدر ماتبذل من حسن البلاء ، وقد أبلت بلاء لم يبله أحد قبلها ، فلتنتظر الجزاء الاوفى ، والمثوبة العظمى ، ولتهنأ منذ اليوم بالمستقبل الباهر السعيد

الى أعدائنا *

١

نعم إنكم أقوياء جدا ، بل لاتوجد قوة فى العالم توازى قوتكم ، ولكننا على ضعفنا وخلو أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم ، لانكم حاربتمونا بسلاح الخديعة والمكر الذى ألفتم أن تنتصروا به على الشعوب الشرقية قرونا عدة فانهزمتم أمامنا ، واستطاع هذا الشعب الشرقى الصغير حديث العهد بالسياسة وأساليبها ومناوراتها أن يدرك خبايا مقاصدكم ومراميكم ، وأن يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكثيف الذى كان يجللها ، وأن يقول لكم بصوته العالى المرتفع : لا أقبل الخدع والألاعيب ، فإما الاستقلال تاما صريحاً لاريبة فيه ، أو لا شيء

إننا أقوى منكم لانكم لم تستطيعوا أن تخدعونا عن أنفسنا ، ولا أن تستنزلونا عن عقيدتنا ويقيننا ، أما تلك القوة الميكانيكية التى تهرعون بها فى شوارع البلاد وأزقتها ، وتملأون بها وجه الارض وجو السماء ، فهى مما لا يفخر به الفاخر ، ولا يُدل به المدِل ، لانها شيء ، والصفات النفسية والمزايا العقلية شيء آخر

هل استطعتم بعد مقامكم بيننا اربعين عاما ان تصطنعوا رجلا واحداً

* كتبت هذه السلسلة على أثر نفى سعد باشا وصحبه بأمر السلطة الانكليزية تمهيداً لتأليف وزارة أخرى من أولئك المنشقين تستطيع أن تنفذ مشروع كرزن بصورة أخرى بحيث لا تجد أمامها من يفضحها ويكشف خبيئتها

من بين هذه الملايين الكثيرة يحبكم ويخلص لكم ؟

هل استطعتم بعد ان سقط ذلك البرقع الكثيف عن وجوهكم وبدت للناس صفحتكم ان تجدوا ثمانية اشخاص يؤلفون لكم الوزارة التى تريدونها لتستعينوا بها على تنفيذ مشروعكم ؟

هل تستطيعون أن تزعموا انكم على ثقة تامة باخلاص شخص واحد من هؤلاء الموظفين الكثيرين الذين قضى عليهم سوء حظهم ان يعملوا معكم ، ويخضعوا لسلطتكم ، حتى الذين غمرتموهم منهم بالنعم ، وملأتم عليهم ديارهم رغداً وهناء ؟

هل تستطيعون ان تبتاعوا بأموالكم الكثيرة التى لاحد لها قلما مصرياً صميما يتولى نشر دعوتكم ، وتأييد سياستكم ، كما تفعلون فى كل مكان حتى فى اوربا وأميركا ؟

إذن انتم ضعفاء ، ونحن اقوياء ، ولنا ان نفخر بهذه القوة التى نعتمد فيها على شرف اخلاقنا ، وعزة نفوسنا ، ومتانة عقيدتنا ، وشدة إخلاصنا لوطننا ، وليس لكم أن تفخروا بتلك القوة التى تعتمدون فيها على السيف والنار كما كان يفعل «الهون» فى أوربا ، «والمغول» فى آسيا ، لانها اقرب إلى صفات الوحشية وغرائزها ، منها إلى روح المدنية ومزاجها

نعم انكم اعتقلتم سعد باشا ، ولكن بعد أن صرع زعماءكم وقادتكم فى ميدان السياسة ، وأفسد عليكم تلك المؤامرة العظمى التى كنتم تريدون بها اعتقال مصر واستعبادها الى الابد ، فقد صودر سعد باشا واعتقل ، ولكن مصر قد نجت

فى استطاعتكم أن تصبغوا وجه مصر بالدماء ، وأن تملأوا بطنها بالاشلاء ، ولكن ليس فى استطاعتكم أن تتقوا نظرات الاحتقار والازدراء التى نلقيها عليكم حين نراكم ، ولا أن تطفئوا نار الحقد والموجدة التى تنبعث من ألسنتنا وصدورنا الى وجوهكم ، ولا أن تنالوا منالا من تلك العقيدة الراسخة فى قلوبنا ، وهى أنكم أضعف الضعفاء ، وان كنتم أقوى الاقوياء ، وان هذه القوة التى تعتمدون عليها وتُدلّون بها ليست قوة السياسة ، ولا قوة الفكر ، ولا قوة التدبير ، وانما هى قوة الشر والغضب

اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا ، ألغو الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا ، املكوا علينا كل شئ إلا قلوبنا وأفئدتنا ، احكمونا باسم الأحكام العرفية ، والأساليب العسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية ، والأحكام السموية والأرضية ، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية ، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر وفرغتم من قضيتها

إنكم لاتحاربوننا من أجل احتلال البلاد فأنتم محتلوها ، ولا من أجل الاستيلاء على مواردها وأرزاقها فهى جميعها تحت سلطتكم وسيطرتكم ، ولا من أجل إطفاء الثورة وقمعها ، فالأمة التى لا سلاح لها لا ثورة فيها ، ولكنكم تحاربوننا من أجل إرغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعى فى مصر ، ومادمتم لم تصلوا الى هذه الغاية بعد بذلكم ما وهبكم الله من دهاء سياسى وحيلة عقلية فى هذا السبيل فنحن المنتصرون ، وأنتم المنخذلون

الى أعدائنا

٢

ماذا جنى الرجل عليكم فتنفوه الى أقصى بقعة من بقاع الأرض وما هو بثائر ولا محارب ولا عرف له الناس موقفاً يدعو فيه بدعوة الجاهلية الأولى ، أو ينطق فيه بكلمة الدم التي ينطق بها الثائرون في كل شعب وأمة ، ليستثيروا بها حفائظ النفوس ، ويدفعوا بها الرجال الى مواطن الموت

أين هو الجيش الذى قاده لمحاربتكم ، وأين هي الجموع التي سلحها وزحف بها عليكم ، وأين هي الثورة التي أشعل نارها ، أو الفتنة التي أحيا مواتها ، فتعاقبوه هذا العقاب الشديد الذي اعتدتم ان تعاقبوا به زعماء الثورات ، وقواد المؤامرات ، لا بل إنكم ما عاقبتم زعماء أعدائكم الذين رووا الارض بدمائكم ، وغطوا وجهها بأشلائكم ، ونالوا منكم أشد ما ينال محارب من محاربه بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ، وقد كنتم تزعمون ويزعم كثير من الناس لكم أنكم أمة العدل والقانون ، وان الشمس لا تطلع في مدار من مدارتها على محكمة مثل محكمتكم ، وقضاة مثل قضاتكم ، وميزان قسط وانصاف مثل ميزان قسطكم وانصافكم

ان الرجل لم يكن جباناً ولا رعديداً ، ولا من المغرقين في حب حياتهم ، أو الضانّين بها على مواقف المجد والشرف ، ولو شاء أن يشعل نار الثورة في كل مكان ، وأن يقود الرجال الى مواطن الموت لفعل ، ولكنه لم يفعل ، ولا فكر في شيء من ذلك ، لأنه من فريق الدعاة ، لا من فريق الثوار ،

ولأنه رجل عاقل حكيم لا يخطو الخطوة الواحدة حتى يقدر لها موضعها ، وكانت لهجته الدائمة التى لا تفارقه فى جميع مواقفه ومشاهده الدعوة إلى السكون والهدوء ، والعمل فى دائرة القانون والنظام ، والمطالبة بالحقوق الوطنية بالطرق المشروعة السائغة ، أى إنه كان رجل حجة وبرهان ، لا رجل نزال وطعان ، فلماذا لم تعرفوا له هذا الشعور الطيب الشريف الذى كانت تشتمل عليه سريرة نفسه ، ولم لم تحترموا فيه تلك العاطفة الطاهرة الكريمة التى كانت تتدفق من بين جنبيه شرفاً ونبلا ، وتسيل رحمة وإحساناً

إنكم أقوياء جداً ، ما نازعكم فى ذلك منازع ، وها هى جيوشكم وأساطيلكم وأسلحتكم ودباباتكم وطياراتكم تملأ البحار والقفار ، والسهول والجبال ، والتهائم والنجود ، والشوارع والازقة ، والاجواء والآفاق ، فماذا عليكم لو أنكم تركتم الرجل فى مكانه هادئا مطمئنا ، لا تهيجونه ولا تزعجونه ، حتى اذا أثار عليكم الثائرة التى تخشونها لجأتم الى قوتكم فقمعتموها كما تفعلون اليوم ، وقد قامت لكم الحجة عليه ، واعتصمتم فى أمره باليقين الذى تطمئن اليه نفوسكم ، وتنقطع به حجة المؤاخذين لكم ، والناقمين عليكم ، وان كانت الاخرى كفيتم أنفسكم وكفيتمونا معكم هذا الشر المستطير بيننا وبينكم ، وحقنتم تلك الدماء التى سالت فى بطاح الارض بلا جريرة ولا سبب

تؤكد لكم ياقوم أن الامة المصرية لم تكن آلة فى يد سعد باشا يصرفها كيف يشاء كما وهمتم ، أو كما أوهمكم ذلك الضعفاء منا ، وان روح الوطنية المنتشرة فيها ليست روحا صناعية كاذبة يحييها وجوده ، ويميتها نفيه ، وان نفيه الى أقصى بقعة من بقاع الارض ، بل الذهاب به الى مصير أعظم وبلا

وهولاً من هذا المصير ، لايحل عقدة واحدة من عقد المسألة المصرية ، ولا يغير وجها واحداً من وجوهها ، ولا ينتقل بها خطوة من مكانها ، أى إنه لاتسمح للمستوزرين بتأليف الوزارة التى يريدونها ، ولا براحتهم وهدوئهم فيها إن هم ألفوها ، ولا يفسح لأولئك القوم الذين تسمونهم المعتدلين ، ونسميهم بالمساكين ، مجالا أوسع من المجال الذى يضطربون فيه ، ولا يفتح فى جدار الوطنية ثغرة صغيرة تتمكن مكيدة المشروع الكرزنى أو الملنرى من الانحدار منها ؛ وانكم لم تستفيدوا من كل ماعملتم شيئا سوى انكم ظلمتم الرجل وبؤتم بإثمه ، لا اكثر من ذلك ولا أقل

ماذا جنى سعد باشا عليكم سوى أنه كان يطالبكم بحقه وحق بلاده بالحجة والبرهان ، ولا يوجد فى تاريخ من تواريخ الأمم القديمة أو الحديثة قانون متمدين أو متوحش يعتبر هذا العمل جريمة يعاقَب عليها صاحبها بازعاجه من مأمنه ، وإقصائه عن أرضه ، ووضع ذلك السد المنيع بينه وبين جمال الحياة وروتقها ؟

لِمَ تنتزعونه من سرير نومه قبل أن تنبعث الطير من وكناتها ، وتطيرون به الى ذلك المنفى القصى البعيد الذى لايعلم إلا الله ما يكون مصيره فيه ، وما هو بقاتل ، ولا سارق ، ولا مختلس ، ولا داع الى ضلالة ، ولا قائم بفتنة ، ولاطالب شيئا سوى ان يعيش هو وقومه أحراراً كما تعيش الطيور فى أجوائها ، والسوائم فى مراتعها ، والاسماك فى دأماتها ؟

لم لم ترحموا شيخوخته ومرضه ، وأنه رجل أعزل ضعيف لا يملك من القوى غير لسانه الذى يذود به عن وطنه وقومه ، ومتى كانت الألسنة والاقلام جيوشاً وجحافل تنازلها الجيوشُ والجحافل ؟

لم لم تحاجّوه وتقنعوه بحقكم الذى تزعمونه لانفسكم بدلا من أن تقولوا له « إما الصمت وإما الموت »

ما أغرب شأنكم أيها القوم! وما أعجب تصوراتكم! أفيما بين يوم وليلة تنقلبون معنا من أصدقاء أوفياء تجالسوننا على منضدة واحدة لتفاوضونا على قاعدة الحرية والمساواة، والود والاخاء، الى أعداء حاقدين واجدين، تسفكون دماءنا، وتمزقون أشلاءنا، وتشردون زعماءنا تحت كل نجم وكوكب، وموقفنا موقفنا، لم يتغير ولم يتبدل، سوى اننا وقفنا لحظة أمام المشروع الذى قدمتموه الينا نتعم النظر فيه، هل هو استقلال حقيقى كما تقولون، أم شيء غير ذلك تسمونه استقلالا

نقسم لكم لقد جعلتمونا نرتاب فيكم، وفى كل ما تطلع عليكم شمسكم، وتفيء عليه ظلالكم، وفى الريح التى تهب من أرضكم، والماء الذى ينحدر من بحركم، بل وفى العلم الذى تشتمل عليه مدارسكم، والمحور الذى تدور عليه مدنيتكم، ولقد مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها سوى أن نصل فى المدنية الى الذروة التى وصلتم اليها، فقد أصبحنا ولا أبغض الينا من التشبه بكم، والتخلق بأخلاقكم، والسير على آثاركم، مخافة أن تصبح مدنيتنا فى مستقبل أيامها مدنيةً وحشية لا عهد فيها ولا ذمام

سنأكل الشيح والقيصوم ان عز الطعام الا من أيديكم، ونلبس الجلود والفراء ان أقفرت الارض الا من مصانعكم، ونشرب الملح الأجاج ان أبى العذب الزلال ان ينبع الا فى أفقكم، ونعيش فى الظلمة الداجية ان أبت الشمس أن تشرق الا من آفاقكم، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال، ونلبسها ثوب القحط والجدب، لنقطع السبيل على مطامعكم، ونكدر

عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأمواهها ، غير شاكين ولا متبرمين ، فلا خير فى نعمة يكدرها الذل ، وبعداً لماء لايشربه شاربه الا ممزوجا بدم

ان فى السماء إلها ، وان فى الأرض عدلا ، وإن العناية الالهية التى تضم تحت أجنحتها ضعف الضعيف ، وبؤس البائس ومظلمة المظلوم ، أرحم من ألا تحفل بهذه الدموع التى تذرفها الأمة حزنا على شيخها الشهيد المظلوم

رويدك حتى تنظرى عمّ تنجلى   غمامة هـذا العـارض المتألق

الى سعد باشا*

فى منفاه

فى الساعة التى نزلتَ فيها إلى قاع السفينة « نوراليا » لتفارق هـذا العالم كله إلى جزائر « سيشيل » صعد خصومك المستوزرون إلى كراسى مناصبهم فرحين متهللين يهنئ بعضهم بعضاً ، ويبسم بعضهم إلى بعض ، ولا أعلم هل تلك الحمرة الخفيفة التى جالت فى وجوههم فى تلك الساعة كانت خالصة كلها للسرور والغبطة ، أم كان يمازجها شىء للخجل والحياء ، ولعلها كانت الثانية ، فانى مَن لا يعتقد أن الضمير الانسانى إذا جمد ينتهى به جموده إلى الموت

أنت سجين وهم مطلقون ، أنت معذب وهم ناعمون ، أنت مستوحش منفرد فى قفرة جرداء لا أنيس لك فيها ولا سمير إلا بضعة أفراد مثلك

* كتبت على أثر سفر سعد باشا من عدن الى سيشل تمهيداً لتأليف الوزارة الثروتية وتنفيذ تصريح ٢٨ فبراير

مستوحشين منفردين ، وهم مؤتنسون بالعيش فى قصورهم وبساتينهم ، وملاعبهم ومسارحهم ، بين نسائهم وأولادهم ، وصحبهم وخلانهم ، أنت مكتئب حزين يتقاسم قلبك همان ، هم نفسك ، وهم قومك ، وهم فرحون متهللون يطفرون ويمرحون ، ويطيرون بأجنحة سرورهم وحبورهم فى كل جو وأفق ، لا يخالط نفوسهم هم واحد

ولكن هل أنت على ذلك شقى ؟ وهل هم على ذلك سعداء ؟

لا ، لقد كانت لهم أمنيةٌ أن تغيب عنهم فيغيب عنهم اسمك وذكرك ، وضوضاؤك وجلبتك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالنفوس ثائرة ، والقلوب واجدة ، والهتاف باسمك يملأ الآفاق والاجواء ، والدعاء بثأرك يلاحقهم فى كل مكان يسيرون فيه ، وعيون الحقد والبغضاء تضرب حولهم نطاقاً نارياً لاسبيل لهم إلى التفلت منه ، والخروج من دائرته ، فأنت الحر الطليق ، وهم الأسراء المسجونون ، ولكنهم يتجلدون ويصابرون

أنت تعيش من فضيلتك وشرفك ، ومن رضاك عن نفسك ، واغتباطك باداء واجبك ، ومن راحة ضميرك واستقراره ، وهدوء نفسك وسكونها ، فى أرحب من رقعة الارض ، وأفسح من ديباجة السماء ، وهم يعيشون من وخزات ضمائرهم ، وقلق نفوسهم ، ووساوس صدورهم ، وخوفهم على تلك اللقيمات الملفوظات التى هى كل ما ظفروا به من حياتهم أن تهب عليها عاصفة من العواصف فتطير بها وتطير بهم معها ، ومن شبحك الهائل المخيف الذى لا يفارق مضاجعهم ، ولا يبرح يقظتهم ومنامهم ، ولا يزال يتمثل لهم فى طعامهم الذين يطعمون ، وشرابهم الذى يشربون ، وفى جميع ما تمتد

اليه عيونهم، وتتصل به اسماعهم، فى أضيق من كفة الحابل، وأضنك من عيش السجين

لاسجن فى الدنيا غير سجن النفس، ولا حرية فيها غير حريتها، وليست سعادة المرء بمقدار ما يحيط بجسمه من الفضاء، بل بمقدار ما يحيط بنفسه منه

فما سِجنك الذى تعيش فى جوه الموحش المكتئب، وبين جدرانه المتقاربة المتدانية، بمانعك من أن تطير بنفسك العالية الخفاقة فى ما تشاء من الآفاق والاجواء، وأن تتمتع برؤية هياكل مجدك وعظمتك المقامة لك على ضفاف النيل من طيبة الى الاسكندرية، وأن تسمع دقات القلوب الخافقة بحبك، وأحاديث النفوس الهاتفة بذكرك

وما فضاؤهم الرحب الفسيح الذى يحيط بهم بمجدٍ عليهم شيئاً إذا حاولوا الحركة والاضطراب فيه، لأنهم يعلمون أنهم يعيشون فى أمة قد وتروها وآسفوها، وغرسوا الحقد والبغضاء فى صدورها، فهم على قوتهم وبأسهم، وعلى ضعفها وتجردها من كل سلاح وعدة، يخشونها ويخافونها، ولا يطيقون أن يحتملوا نظراتها النارية التى تلفح وجوههم، ولاصرخاتها الدموية التى تدوى فى آذانهم، فهم دائماً فارّون مطارَدون كأنهم بعض المجرمين، لاعمل لهم فى حياتهم سوى أن يسائلوا أنفسهم أين يعيشون وكيف يعيشون ؟

انهم لم يريدوا مطاردة جسمك، بل نفسك، ونفسُك باقية فى مكانها لم تبرحه، ولم يعتقلوك من أجلك، بل من أجل القضاء على الروح الوطنية

من بعدك ، والروحُ الوطنية ناميةٌ زاهرة تضرب أعراقُها فى أعماق القلوب ، وتهفو ذوائبها فى آفاق السماء ، ولم ينقموا منك حياتك ولا وجودك ، بل وقوفك فى وجه متعتهم بمناصبهم التى هى كيان حياتهم ، وقوام أمرهم ، والتى لا سبيل لهم الى العيش الا فى ظلالها ، ولا الحياة إلا فى دائرتها ، ومناصبُهم منغصة مهددة هى هامة اليوم أو غد

فهم لم يفقدوا إلا وجهك ، ولم ينالوا إلا من جسمك ، ولم يحصلوا فى أيديهم من كل ما عملوا إلا على إثم الجريمة وعارها

آه ياسيدى لو تيسر لك أن تراهم لرأيت قوماً معذبين متألمين ، حائرين ذاهلين ، لا يهنأون فى نوم ولا يقظة ، ولا يهدءون فى سكون ولا حركة ، قد ضاقت بهم الحيل ، وتشعبت بهم السبل ، وانتشرت عليهم الآراء والأفكار ، لا يعلمون ماذا يأخذون وماذا يتركون ، ولا عمل لهم فى حياتهم سوى أن يسائلوا أنفسهم ليلهم ونهارهم ألاَ يستطيع هؤلاء الناس أن يرضوا منهم بدون عودتك ، وعودتك موتهم الاحمر ، وشقاؤهم الأكبر

ينثرون الذهب على الناس نثراً ليتألفوهم ويستدنوهم ، فيلتقطونه وهم يلعنونهم ، لأنه ما لهم قد سلبوه منهم ثم نثروه عليهم

يوزعون الرتب والنياشين على الخاملين والمغمورين ليكونوا أعوانهم وأنصارهم ، فيمنحونهم من ألسنتهم ووجوههم ، مالا يمنحونهم من قلوبهم وأفئدتهم ، لأن الحب لا يشترى بالأسماء والالقاب

يخلعون الوظائف الكبرى والمناصب الخطيرة على صغار الموظفين وأحداثهم ليخلبوهم ويبهروا عقولهم ، فلا يصنعون لهم شيئاً سوى أن

يجاملوهم فى مجالسهم ببعض ما يحبون ، فاذا خرجوا من عندهم خرجوا هازئين بهم ساخرين

يبتاعون أقلام فقراء الكتاب وبؤسائهم ليكتبوا لهم ما يحط من شأنك ويرفع من شأنهم ، فيفعلون كارهين متبرمين ، لأن القلم لا يجد لذة المراح والجولان الا فى ميدان الصدق والاعتقاد

يصيحون فى الناس بلهجة الخبثاء الماكرين أبشروا أيها الناس فقد جئناكم بالاستقلال الذى هو خير لكم من سعد، فيجيبونهم بهدوء وسكون لو كان صحيحاً ما تقولون لكان سعد أول من يتمتع به لأنه صاحبه

يحلفون لهم بالله جهد أيمانهم أنهم لا يريدون بهم إلا خيرا ، ولا يضمرون لهم إلا ما يحبون ، فيقولون لهم ولماذا اذن نفيتم سعدا ؟

يحاولون بكل ما يعرفون من الوسائل أن يفصلوا بين قضيتك وقضية مصر فكأنما يحاولون الفصل بين الشمس وشعاعها ، والنار وحرارتها ، والمقدمة ونتيجتها

يصخبون أخيراً ويحتدمون ويقولون إن التشبث بعودة سعد مسئلة شخصية ، فتتجاوب الاصداء من كل ناحية هبوا أن الأمر كما تقولون ، وهل تشبثكم بمناصبكم ، وعضكم عليها بالنواجذ ، ومخاطرتكم بكل شىء فى سبيلها ، مسئلة غير شخصية ؟

فانت يامولاى قذى أعينهم ، وغصة حياتهم ، وشغل قلوبهم وأفئدتهم ، والحجة القائمة عليهم، أحسنوا أم أساءوا ، أعطوا أم منعوا ، نفعوا أم أضروا ،

ولقد تحدثهم نفوسهم أحياناً بالتخلى عن تلك المناصب الشقية وتوديعها إلى الأبد سآمة وضجرا ، وضيقاً وحصرا ، ولكن يحول بينهم وبين ذلك

عِلمهم أن الأوان قد فات ، وأن الأمة لا تغفر لهم ذنوبهم ، ولا تقيل لهم عثراتهم ، وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا فى فضاء الأرض ذات الطول والعرض ظل حصاة يلجأون اليه من نقمه الأمة وغضبها ، فلا يجدون لهم بدامن أن يستمروا قابعين وراء تلك الأكمة التى تحميهم وتذود عنهم ، وربما كانوا يبكون من وراءها دما

فمثَلهم كمثل الفارّة من بيت أبيها إلى بيت خليلها ، يلحقها الندم ، وتضيق بهاساحة العيش فتودّ لو رجعت الى بيتها الأول ، ولكنها لا تستطيع

وكأنهم بسادتهم وحُماتهم وقدملوهم وسئموهم ، وضجروا بمكانهم ، لانهم مامنحوهم هذه المناصب حباً وإيثارا ، أو منة وفضلا ، بل ليمهدوا لهم السبيل الى ذلك الاتفاق الذى يريدونه ، ويقوموا لهم بوظيفة تحويل شعور الامة الى سياستهم ، واقتيادها الى حظيرتهم ، من طريق الحيلة والكيد ، لامن طريق القوة والعنف ، وقد عجزوا عن ذلك ، فلم يبق لهم سبيل الى البقاء

وكذلك ينتقم الله لك منهم يامولاى انتقاماً تهتز له أقطار الارض ، وتضطرب له أكناف السماء ، وكذلك يسجل لهم التاريخ فى صفحاته من العار والشنار ماسَجل لامثالهم من الخارجين المارقين

مولاى !

لا الشمس الطالعة من مشرقها صفراء كالذهب تنشر الاضواء فى الآفاق ، وتعابث باشعتها اللامعة المتلألئة ذوائبَ الاشجار ، وقمم الجبال ورؤوس الهضاب ، وتبعث الازهار من أكمامها ، والطيور من أوكارها

ولا البدر السائر فى سمائه بعظمته وجلاله بين حاشية من كواكبه

ونجومه ، يمسح بليقته الفضيــة جبين السماء ، ويمزق حجب الظلام عن وجه الغبراء

ولا الربيع المقبــل فى حلل زهوره ورياحينه ، ومطارف غــدرانه وجــداوله ، يوشى بساط الارض بأبدع الالوان وأبهــاها ، ويملأ الفضاء الرحب بأطيب الروائح وأعبقها

ولا الطيور الصادحة فى أفنانها توقع نغماتها على خرير الماء ، وتترجم فى توقيعها عن شجو النفوس وحنينها ، وخفقان القلوب وأنينها

ولا أحلام الحياة اللذيذة المنبعثة فى النفوس انبعاث الراح فى الاجسام ، تحيي مواتها ، وتثير نشوتها ، وتهز أعطافها ، وتذيقها حلاوة المنى ، ولذة الأمل

ولا الدنيا وجمالها ، والارض وبهجتها ، والسماء وزينتها ، والبحار وروعتها ، والمروج وخضرتها ، والازهار ونضرتها ، بقادرة على أن تنسينا أيامك الغر البواسم التى كانت غرر الدهر وحجوله ، وزينة الدنيا وبهجتها ، ولا بمستطيعة أن تنزع من قلوبنا مرارة الحسرة على فراقك ، واللهف الى لقائك ، فمتى يجمع الله بيننا وبينك !

لا أوحشت دارُك من شمسها ولا خــلا غابُك من أُســده

*

في أى سبيل هذا *

أفي سبيل تلك الكلمة التافهة السخيفة كلمة « الاستقلال » التي زعمتموها والتي لا تساوى ثمن قطرة المداد التي كتبت بها ، يقضي سعد باشا زعيم الامة ورئيس نهضتها وفخر تاريخها الحاضر أيامه في ذلك المنفى البعيد الموحش عليلا معذبا لا يجد بجانبه إنسانا واحدا يعلله ويعطف عليه

أفي هذه السبيل تمتطى زوجُه الشيخة المريضة متن المحيط سبعة أيام تحت رحمة القضاء ، وبين شقى مقص الفناء ، حتى تصل اليه في معتزله لعلها تستطيع انقاذه

أفي سبيل أكذوبة باردة لا يصدقها طفل ولا ينخدع بها أبله يضحَّى بهذا الرجل العظيم هو وجميع أنصاره ورجاله ما بين منفى مهجور ، وسجين مقبور ، وواقف على حافة الهوة يوشك أن يتردّى فيها !

أفي سبيل متعة طائفةٍ من الكسالى العاجزين لا يتجاوزون المائة عدا ببعض مشتهيات كمالية لا يقتلهم فقدها ، ولا يحييهم وجودها ، تلبس أمة كاملة ثوب الحداد الدائم على رجالها المبعدين ، وزعمائها المنفيين ، وشبانها المعتقلين ، وأفلاذ أكبادها المقبورين ، ففي كل دار رنة وزفير ، وفي كل ساحة مناحة ومأتم !

أتعلمن فيم تذرفن دموعكن أيتها الامهات الثكالى ؟ وفيم تصعّدن زفراتكن أيتها الزوجات البائسات ؟ وفيم تختلفن صباحكن ومساءكن إلى

* كتبت على أثر سفر صاحبة العصمة السيدة الفاضلة حرم سعد باشا إليه في جبل طارق لتشاركه في آلامه التي كان يقاسيها هناك

أبواب السجون مرة وأفنية القبور أخرى أيتها الارامل والايامى ؟

إنكن تفعلن ذلك كله في سبيل موظف يشتهي درجة أعلى من درجته، وآخر يطلب دارا أوسع من داره، وآخر يريد طعاما أدسم من طعامه، ووجيه يخشى أن يفقد نعمة البشاشة التي اعتاد أن يراها في وجه الوزير، وعين يخاف أن يخسر الجلسة التي يتمتع بها في حضرة المدير

أولئك هم المعتدلون الذين لم يعتدلوا في شيء الا في سياستهم، ولكنهم متطرفون في كل شيء من مطامعهم وشهوات نفوسهم

في سبيل هؤلاء الشرهين النهمين يتألم شعب بأكمله، ويقاسي من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يطيقه بشر، فما أغلى ما بذلنا، وما أرخص ما أخذنا

ما كانت حياة الامة متوقفة في يوم من أيامها على أن يتمتع هؤلاء الكسالى البلداء بما يتمتعون به، بل ما كانت متوقفة على وجودهم في قيد الحياة، ولكنها في أشد الحاجة إلى بقاء زعمائها وأبطالها بين ظهرانيها، يلمون شعثها، ويجمعون شملها، ويجاهدون في سبيلها، ويحيون الآمال في نفسها، ويشاركونها في نعمائها وبأسائها، ويهونون عليها همومها وآلامها، ويحتضنونها الى صدورهم الطيبة الرحيمة في ساعات شدتها ولأوائها، فتستشعر برد الراحة وسكون العزاء

وصفت انجلترا مصر بأنها مستقلة !!!

هذا كل مايقولون، وهذا ما يريدون أن يعزونا به عن قتلانا وجرحانا، وسجنائنا ومعتقلينا، وجميع ما بذلنا من دموع، وكابدنا من آلام، نيفا وأربعين عاما

بخ بخ لهذا الوصف الجميل البديع !!!

متى كنا أيها الصغار النفوس والضعاف العزائم والهمم فى شوق الى الاوصاف والنعوت ، والاسماء والالقاب ، ومتى تخلقنا بأخلاق النساء فنبتهج بكلمات الغزل والنسيب وجمل المدح والثناء ؟ ومتى ضنّ الانجليز علينا بهذه الكلمة فى عهد من عهودهم الماضية والحاضرة ، أوضنوا بها على شعب من الشعوب التى يستعمرونها ، ويملكون عليها أنفاسها ، فنعدها كلمة جديدة لم نسمع بها من قبل ؟ وهل كان موضوع النزاع بيننا وبينهم حروفا وكلمات ، فينتهى أمره بحروف وكلمات ؟ وهل بلغت بنا ضعة النفس وهوانها ، وانحطاطها وإسفافها ، أن ننزل عن طلب الاستقلال الى الرضا بكلمة هى أشبه الاشياء بكلمة (الفندق) التى أمر أحد الملوك الظلمة بكتابتها على باب سجنه ارضاء لخاطر المسجونين أو سخرية منهم !

إننا لا يكفينا أن يعترف الانجليز باستقلالنا ، بل لا نطلب اليهم أن يعترفوا لنا به ، لاننا لانريد أن يكون مبنيا على اعترافهم ، ولا نحب أن نعطيهم الحق فى سلبه واعطائه ، وانما نطلب اليهم أن يفارقوا أرضنا ساكتين صامتين لايقولون لنا خيرا ولا شرا ، فان فعلوا فذاك ، والا فموقفنا معهم موقفنا مذ نزلوا بأرضنا حتى اليوم

أما الاكذوبة الكبرى التى لم ينطق بمثلها ناطق مذ خلق الله اسم الكذب حتى اليوم فهى قولكم اننا أخذنا منهم ولم نعطهم ، وهل أعطى أحدٌ فى العالم مثل ما أَعطينا فى مثل ما أخذنا ؟

ألم نعطهم راحة نفوسهم من القلق والخوف على مستقبلهم فى مصر ، وراحةَ أسماعهم من ضوضاء المطالبة بالحقوق وجلبتها ، وراحةَ أمزجتهم من

تكديرها برؤية أشباح الساخطين والناقمين !

ألم نعطهم أن الادارة المصرية قد عادت لهم الى ما كانت عليه فى عهدها الاول، وأصبحت خاضعة لأمرهم فى كل مايريدون ويقترحون ، ولا نعلم ماذا نقدم لهم غداً فوق ذلك ؟

ألم نجمع لهم بين فوائد السلطة وثمراتها، وبراءة أيديهم من تبعاتها وآثامها، فهم يقضون فى كل شىء من حيث لا يتعلق عليهم منه شىء؟

ألم نعطهم ألا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن فى دائرة من الدوائر السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يوضع قانون، ولا مادة فى قانون، ولا يثاب مثاب، ولا يعاقب معاقب، ولا يصادَق صديق، ولا يعادَى عدو، الا فى سبيلهم ، وتنفيذ الأمرهم ، ونزولا على حكمهم، وكأنهم ما أرادوا شيئاً، ولا اقترحوا أمراً

ألم نسلم اليهم زعماءنا وعظماءنا الذين كانوا يهددون مركزهم فى مصر، أو ينغصون عليهم حياتهم فيها على الأقل، ينفون منهم من أرادوا، ويسجنون من شاءوا ، غير حافلين ولا مكترثين ، لا يزعجهم مزعج ، ولا يقلقهم مطالب

ألم نعطهم تمزيق شملنا ، وتفريق كلمتنا، وانقسامنا على أنفسنا ، وفساد كثير من أخلاقنا القومية فى كثير من بيآتنا العليا والدنيا، ونزول بعض أشرافنا المحتشمين الى درك الجاسوسية الدنيئة بعد أن كانت فى نظرهم العار الدائم الذى لا يمحوه حتى الموت ؟

هذا ما أعطينا ، أما ما أخذنا فهى تلك الحروف السبعة التى لم قدموها

الينا مكتوبة بأسلاك الذهب ، ومحلاة بأحجار الياقوت والماس ، لما ساوت قطرة دم واحدة من ذلك البحر الزاخر من الدماء التى قدمنا

وهل كانوا يطلبون عندنا أكثر من ذلك ؟ أو يقترحون على دهرهم أمنية فوق هذه الأمنية ؟ أو كانوا يضنون ببذل مستعمرة كاملة من مستعمراتهم للوصول الى هذه الغاية التى وصلوا اليها ؟

أنتم وحدكم أيها المعتدلون المسئولون عن هذه الصفقة الخاسرة ، فما رزئنا بما رزئنا به الا من طريقكم ، وما ذهب ما ذهب منا الا فى سبيل مطامعكم وشهواتكم

ردوا علينا أولادنا وإخوتنا وآباءنا وفلذات أكبادنا من ضمته منهم القبور ، ومن اشتملت عليه منهم السجون ، فانهم لم يضحوا بأنفسهم حين ضحوا بها فى سبيلكم ، وسبيل مآربكم وشهواتكم ، بل فى سبيل أمتهم ووطنهم

ردوا علينا زعماءنا وأبطالنا ، وقادتنا وعظماءنا ، فاننا لا نبيعهم بغير ثمن ، ولا نقبل أن نلبس ثوب العار الدائم بتركهم فى أيديكم

ردوا علينا دموعنا وآلامنا ، وقلق مضاجعنا ، وتسهيد أجفاننا ، وجميع مجهوداتنا التى بذلناها أعواما طوالا حتى نزل بنا شؤمكم فأضاعها علينا ، فكاننا لم نذرف دمعة واحدة ، ولم ندفن قتيلا واحداً

أعيدوا الينا وحدتنا وجامعتنا ، وتلك الايام الحلوة الجميلة التى كنا نجتمع فيها كلنا فى ميدان واحد ، تحت سماء واحدة ، نشترك فى نعمى الحياة وبؤسها ، ونتقاسم سراءها وضراءها ، ويجد كل منا فى حجر صاحبه المهادَ اللين الوثير الذى يضع رأسه عليه حين يدركه التعب ، وينال منه النصب

أعيدوا الينا سمعتنا وكرامتنا ، وذلك الصيت الحسن الجميل الذى كان

يرنّ فى آفاق الارض رنين النغمات الموسيقية فى أجواز الفضاء فيعود الينا صـداه حاملا البهجة لارواحنا ، والسرور لافئدتنا ، والعزاء الجميـل عن مصابينا وآلامنا

***

لا . لا . لاتعيدوا الينا شيئاً، فاننا لم نفقد شيئا

مالنا ولكم ولعقودكم واتفاقاتكم ، ودساتيركم ومجالسكم ، ولما تأتمرون به فى خلواتكم وجلواتكم ، فلنا شأننا ، ولكم شأنكم

الأمة هى الأمة لا يعنيها من ينفصل عنها أو يخرج عليها ، ولا يفت فى عضدها أن مائة من أفرادها قد انتقلوا الى الصفوف المحاربة لها ، فهى بقوة عزيمتها، وجلد نفوسها ، وصبرها واحتمالها، وامتداد حبل آمالها وأمانيها ، ورسوخ ايمانها فى أعماق قلبها، قادرة على أن تستقبل أعظم قوة فى العالم، وتثبت فى وجه كل عاصفة تهب عليها كيفما كان شأنها ، فما انتصر المنتصرون يوما بقوة سلاحهم وعدتهم، بل بقوة يقينهم وايمانهم ، وما أغنى السلاح يوما عن أصحابه شيئا اذا كانت النفوس خائرة متضعضعة ، ولا ضرها فقدانه فتيلا اذا كانت النفوس فى حصن حصين من قوة عزيمتها، وثبات عقيدتها

سيُهدم عما قليل كل مابنيتم ، لان الأمة لم تشترك فى بنائه، وسينقض كل ما أبرمتم ، لان الأمة لاتريد ابرامه ، وسيعود كل غائب الى داره، لان الأمة لاتتخلى عن أبنائها ، وما كَتب التاريخ فى صفحاته قط أن أمة من الأمم أرادت أمراً ، وأجمعت رأيها عليه ، فاستطاعت يد غير يد الله أن تحول بينها وبين ما تريد

ثم ماذا؟ *

لا أنتم قادرون على أن تنالوا ثقة الناس، ولا الناس بقادرين على أن يمنحوكم ثقتهم، وقد أظلم الفضاء بينكم وبينهم حتى ماتستطيع الشمس الساطعة أن تمحوَ طبقة واحدة من طبقاته، فما بقاؤكم بعد ذلك ؟

إنكم لم تقولوا للناس حين جلستم على هذه المقاعد إنكم تجلسون عليها مستبدين مستأثرين، لا تكترثون لأمة ولا شعب، ولا تحفلون بسخط ولا رضاء، بل قلتم لهم انكم تنزلون على ارادتهم، وتحكمون باسمهم، ولا تقطعون أمراً من دونهم، أى انكم وكلاؤهم وعمالهم، تبقون ماأرادوا بقاءكم، وتنصرفون حين يريدون انصرافكم، وها أنتم أولاء ترون أنهم قد ملوا بقاءكم، وسئموا العيش معكم، فلم لاتتركونهم وشأنهم يتنفسون الصعداء فى جوغير جوكم، ويطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة فى جوار غير جواركم

لمَ تحرجونهم وتضيقون صدورهم وأنتم تعلمون أن النفس الانسانية ان استطاعت أن تحتمل كل شيء فانها لاتستطيع أن تحتمل ما يثير قلقها ووسواسها على وطنها ومستقبله

فكأن الذين يَهيجونها ويستثيرونها فى هذا الشأن انما يريدون شقاءَها وبلاءها، وما أحسبكم ترضون لانفسكم بذلك

دعوهم وشأنهم عسى الله أن يفرج عنهم كربتهم، ويكشف غمَّاءهم، فربما كان مدخراً لهم فى ضمير الغيب خير كثير لايصل اليهم الا من

* كتبت عندما بلغت الشدة بالامة منتهاها فى أواخر عهد الوزارة الثروتية

طريق غير طريقكم ، فارحموهم من أنفسكم ، واتخذوها يداً عند الله تؤجرون عليها فى دنياكم وآخرتكم

ليت الذين يحيطون بكم من أصدقائكم وأشياعكم يسمحون لانفسهم بأن يَصْدُقوكم الحديثَ عن حالة الامة اليوم ، ويصوروا لكم حقيقة شعورها واحساسها تصويراً صحيحاً ، لتعلموا أن نفسها تشتمل على هم لم تشتمل على مثله فى عهد من عهودها الماضية ، وأن بيتاً من البيوت ، أو قصراً من القصور ، لا يمكن أن يخلو من عين دامعة ، أو نفس واجمة ، أو فؤاد معذب ، أو قلب مقروح ، وأن الكآبة القائمة قد لبست جميع الوجوه كأنما قد قام بين الناس منذر ينذرهم بالرجفة الكبرى ، والنازلة العظمى ، وأنهم جميعاً يضجون بالدعاء إلى الله تعالى أن يكشف عنهم نازلتهم ، ويفرج كربتهم

فسواء أكانوا مصيبين فى اعتقادهم أم مخطئين ، فالمنظر منظر مؤلم يستلين القلوب القاسية ، ويستذرف الدموع الجامدة

الحقيقة أن الامة تخافكم على نفسها وعلى مستقبلها أشد الخوف ، ويخيل اليها أن كواكب النحس قد ملأت فى عهدكم أرجاء السماء فما يلوح بينها كوكب سعد واحد ، وربما كانت مبالغة فى ظنها ، أو مغالية فى رأيها ، ولكن ما العمل وهذا رأيها الذى تراه ، ولا سبيل لها أن ترى رأياً سواه ، ألا ترون أنها وقد بلغ بها الامر هذا المبلغ قد أصبحت جديرة بعطفكم ورحمتكم ، وأن تضحيتكم ببضعة مناصب فى سبيل راحتها وهدوئها ليست بالشيء الكثير ، ولا الخطب الكبير ؟

إنها عجزت عن أن تصدق انكم أصدقاؤها وأولياؤها وأعوانها على أمرها الذى تعالجه ، بعد ما رأت انكم أصدقاء عدوها وأولياؤه ، وأن السياسة

التى تجرى على أيديكم مذ جلستم على هذه المقاعد انما هى تنفيذ دقيق لسياسته التى وضعها ، وتمهيد متين لتلك الضربة القاضية الذى يسميها اتفاقا أو محالفة ، وأنه يحوطكم بعنايته ورعايته ، ويذود عنكم ذودَه عن قلاعه وحصونه ، وأنه ينفى ويسجن ويشرد كل من أردتم نفيه أو سجنه أو تشريده من زعماء الامة وعظمائها ، فهى تخشى أن تنتهى تلك الصلة التى بينكم وبينه الى خرابها ودمارها، وما دمتم قد عجزتم عن أن تُدلوا اليها بعذركم فى ذلك ، وتوضحوا لها سر هـذا الموقف الذى تقفونه ، فأقيلوا أنفسكم من العمل لها لتعود لها سكينتها وراحتها

هبوكم نعمة من نعم الله عليها ، وهبوها عاجزة عن أن تخطو خطوة واحدة فى سبيل حريتها واستقلالها الا اذا كنتم زعماءها وقادتها ، وهبوا السماء لا تمطرها الا اذا استسقتها بوجوهكم ، والارض لا تنبت لها الا اذا وطئتها أقدامكم ، ولكن ماذا تصنعون وهى لا تثق بكم ، ولا تأمن لكم ، ولا ترضى ان تسير معكم فى الوجهة التى تسيرون فيها ، أتسيرون وحدكم ؟ أم تُسيرونها على الرغم منها ؟ كلا الرأيين عبث لا فائدة فيه ولا نتيجة له الا وقوف القضية المصرية فى مكانها لا تخطو الى الامام خطوة واحدة ، وليس من الرأى ولا من المصلحة فى شىء ان يتشبث القائد بمركزه ، والجيش متمرد عليه ، لا يطيعه ولا يذعن له ، والعدو على كثب منه يلتمس غِرّته فى كل لحظة ليقتحمها ، وان تكون كلمته الوحيدة التى لا ينطق بكلمة سواها « انى أعمل بضميرى »

ولا أحسبكم تقولون إن الامة هى تلك الفئة التى تضمها جدران

جريدة السياسة لانكم تعلمون انها تلجأ اليكم دائما لحمايتها من الامة ، فلا يمكن أن تكون هى الامة نفسها

قد انتقلت المسألة الآن وتغير وجهها تغيراً تاما ، وأصبح البحث فى كفاءتكم وعدم كفاءتكم ، واخلاصكم وعدم اخلاصكم ، وصحة رأيكم وفساده ، وصواب برنامجكم وخطئه ، عبثاً لاقيمة له ، انما البحث فى شىء واحد ، هل الامة حزبكم الذى تعتمدون عليه فى بقائكم فى مراكزكم وفى تنفيذ سياستكم التى تجرون عليها ؟

تلك هى المسألة ، والجواب عن ذلك : لا

اذن فاسمحوا لنا أن نقول لكم أن الامة أضن بوقتها من أن تنفقه فى منازعتكم ومجاذبتكم فأريحوها من الاشتغال بأمثال هذه التوافه ودعوها تشتغل بقضيتها الكبرى فهى أولى أن توجه اليها جهودها، وان تنفق فيها أوقاتها

انها فى حاجة الى توحيد كلمتها، ولم شعثها، وتنظيم سياستها، ووضع دستورها، وتكوين هيئتها النيابية، واصلاح شؤونها المالية والادارية والعلمية ، ورفع منارة عالية للعدالة والحرية تشرق على الأمة جميعها من أدناها الى أقصاها، فيستوى فى الاستنارة بها الغنى والفقير، والقوى والضعيف، وصاحب القصر وصاحب الكوخ ، والوزير الجالس فى كرسى وزارته ، والفلاح النائم فى ظل سرحته ، ومن يمت الى القوة المسيطرة بسبب ، ومن لا يمت بسبب الا الى الله وحده ، وذلك كله موقوف على أن تكون لها حكومة تحبها وتمتزج بها ، وتنزل على حكمها ، وتعينها على ما هى بسبيله ، وتحسن الادلاء إليها باعذارها وضروراتها ان اعترضتها عقبة من العقبات فى طريقها

لا بل ابقوا فى مراكزكم كما أنتم ، ولكن على شرط واحد ، هو ألا تتعرضوا لقضية مصر السياسية بوجه من الوجوه ، ولا تشتغلوا بوضع اى أساس من أسسها ، ولا تضعوا أية عقبة فى طريق المشتغلين بها ، أو اعلنوا اعلانا صريحا بان المسألة المصرية مسألة حكومية محضة لا دخل للامة فيها ، ولا شأن لها بها

نؤكد لكم انكم لو فعلتم لما اختلف عليكم اثنان ، ولا ثقل مكانكم على كائن من كان ، ولا حدث نفسه محدث بازعاجكم واقلاقكم ، أو مطالبتكم بترك مراكزكم

فهل ترون بعد هذا اننا قوم شخصيون لا نبغى الا مشاغبتكم ومناوأتكم حسداً لكم على مراكزكم وطلبا للحلول محلكم فيها ؟

تحية الرئيس*

مرحبا بالبدر الطالع فى جنح ليلة مدلهمة ضل بها السارى لا يعلم أى طريق يسلك ، ولا أى مذهب يذهب ، حتى أشرف عليه من سمائه فسجد لله حمدا وشكرا

مرحبا بالنبع الصافى ظفر به الظامئ الهيمان بعد مسير أيام طوال فى صحراء محرقة لا يرى لامعاً فى أرضها غير السراب ، ولا بارقا فى سمائها غير الشعاع ، فأقبل عليه يرشف من زلاله العذب حتى هدأ غليله ، وبردت جوانحه

* كتبت يوم رجوع سعد باشا من منفاه

مرحبا بالمزنة الهاطلة أصابت تربة قاحلة طال عهدها بالرى والحياة ، فما هو الا ان جرى الماء فى عروقها ، وتغلغل فى صميمها ، حتى اهتزت وربت ، واستحالت من قفرة جدباء ، الى روضة خضراء

مرحبا بقميص يوسف تلقاه يعقوب بعدما ابيضت عيناه من الحزن ، وأظلم الفضاء بينه وبين الحياة ، فانتعشت نفسه ، وأضاءت روحه ، وارتد بصيرا

مرحبا بالأب القادم على بنيه من غيبة منقطعة دارت عليهم فيها النحوس ، وتداولتهم البؤوس ، فلما لاح لهم سواده طاروا اليه فرحين مستبشرين ، وانشأوا يضمونه الى صدورهم ، ويذرفون بين يديه دموع الغبطة والسرور

مرحبا بالرجاء بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، والانس بعد الوحشة ، واليسر بعد العسر ، والفكاك بعد الاسر ، والابلال بعد الاشفاء ، والراحة بعد الاعياء ، والرحمة العامة التى يفيء الى ظلها الضاحون ، والنعمة الشاملة التى يتقلب فى اعطافها المجدودون

مرحبا بالامة فى رجل ، والعالم فى واحد ، والبطل الذى تمر به الحوادث الجسام التى تطير بالباب الرجال فيثبت ثبات الصخرة الصماء ، فى وجه الرياح الهوجاء ، لايشكو ولايتبرم ، ولا يجزع ولا يتألم ، كأن المعنىّ بذلك كله سواه ، والمجاهدِ المخاطر الذى يصمّم فيقدم فلا ينثنى حتى الموت ، كأن الموت مأربه الذى يبتغيه من الحياة ، وكأن الحياة أحقر فى نظره من حذائه الذى يحتذيه ، والمخلصِ الوفىِّ الذى لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها على

أن يبذل فيهـا ذرة واحدة من تراب وطنه ، وقلامة ظفر من أظفار أحد مواطنيه ما فعل

***

ماهذه النضرة التى تجول فى جميع الوجوه،وما هذه الهزة التى تتمشى فى جميع الاعطاف ، وما لهذا الطفل الصغير يستطير فرحا وسرورا كأنما بشره مبشر بطلعة العيد ، وما لهذا الشيخ الهرم يهرع فى مشيته ، وينشط فى لفتته ، كأنما قد لبس برد الشباب مرة أخرى ، وما لهذه العجوز الفانية القابعة فى كسر بيتها يخفق قلبها بين جوانحها خفقان السرور والغبطة كأنما قد مرت بخاطرها لمحة من ذكريات الصبا ، ولم تضطرب الآفاق بالأعلام، وتتلألا الاجواء بالاضواء ، كأنمـا قد هبط الملأ الاعلى الى حرم الارض بنجومه وكواكبه ، وأشعته وأضوائه ، ولم يموج الشاطئان من الاسكندرية الى اصوان بالجموع الفرحة الطربة ، الراقصة الشادية ، كأنما قد فتحت لهم أبواب الجنان ، وقيل ادخلوها بسلام

لاعيد هناك ولا موسم ، ولا فراديس ولا جنان ، ولكنها أمة طيبة كريمة خرجت لتشكر للمنعم عليها نعمته التى أسداها اليها ، ولتسرّى عن نفسه بودها وعطفها آلامَه التى كابدها فى سبيلها ، وربما أضمرت فى نفسها فوق ذلك أن تعتذر اليه عن تلك الذنوب التى جناها عليه بعض أفرادها ، وقد علمت أنه محسن كريم ، وأنه فوق أن يأخذ أمة بجريرة فرد ، بل فوق ان يأخذ ذلك الفرد بجريرة نفسه

خرجت لتشكر له انها كانت ممزقة الاديم أجناساً والوانا ، ومذاهب وأديانا ، فجمع شملها ، ووحد كلمتها ، ووقفها جميعها فى موقف واحد ، تحت

راية واحدة ، هى راية « المصرية » فاصبحت أمة واحدة

وانها كانت ضعيفة عاجزة تهمس بمطالبها ، همسا فصاح بينها صيحة عالية ، فصاحت بصياحه ، فاخترق صوتها مسمع الخافقين ، فالتفتَ العالم قائلاً : إن فى تلك الزاوية الشرقية من تلك القارة السوداء حادثا جديداً

وانها كانت ممنوّة بفئة من المنحرفين المارقين يفتون فى عضـدها ، ويعينون عليها ، فزمهر فى وجوههم ، وكشر لهم عن مثل ناب الليث ، فارتدوا الى أفاحيصهم ولم يستطيعوا الخروج منها بعد ذلك الا متسللين مخافتين ، وإلا بعد ان تنكروا فى رداء غير ردائهم ، واتخذوا لهم عنوانا غير عنوانهم

وأنها كانت تعيش تحت سيطرة حكومة لاتقيم لها وزنا ، ولا تقدرلها قدرا ، فلم يزل يطير بها فى سماء العزة والـكرامة حتى أصبحت تعيش بجانب حكومة لاسبيل لها الا أن تنزل على ارادتها ، أو تنزل عن مقاعدها

وأن كتاب تاريخها الحديث كان خلوا الا قليلا من العظائم التى تُدِلُّ بها الامم وتساجل بها أقرانها ، فسجل لها فيه من المفاخر فى ثلاثة أعوام مالم يسجل لها منذ ثلاثين قرنا

وتشكر له فوق ذلك انها استطاعت بما بعث فى نفسها من العزة والـكرامة ، والشرف والاباء ، ان تنتزعه من بين مخالب أعدائه الاقوياء ، فمحت بذلك صحيفة سوداء فى تاريخ حياتها لو بقيت لـكانت عارها الدائم وسُبتها الخالدة

***

انا نحييك يامولاى فنحيي فيك الشرف والنبل ، والهمة والشجاعة ، والصـبر والجلد ، والاخلاص والوفاء ، والتضحية الشريفة ، والالم

الصامت ، ونحيي فيك مصر القديمة لانك ولدها النجيب ، ووارث صفاتها ومزاياها ، ومصر الحديثة لانك واضع أساسها ، وغارس غرسها ، ونحيي معك تلك السيدة العظيمة المجاهدة الصابرة شريكتك فى نعمائك وبأسائك ومعينتك على همومك وآلامك ، وتستقبلكما استقبال النبتة الذاوية ، للقطرة الصافية ، والزهرة الذابلة ، للشمس الطالعة ، ونقدم لكما تحية لقدومكما قلوبنا التى لاتحمل الا حبكما ، ولا تشتمل الا على الاخلاص لكما

